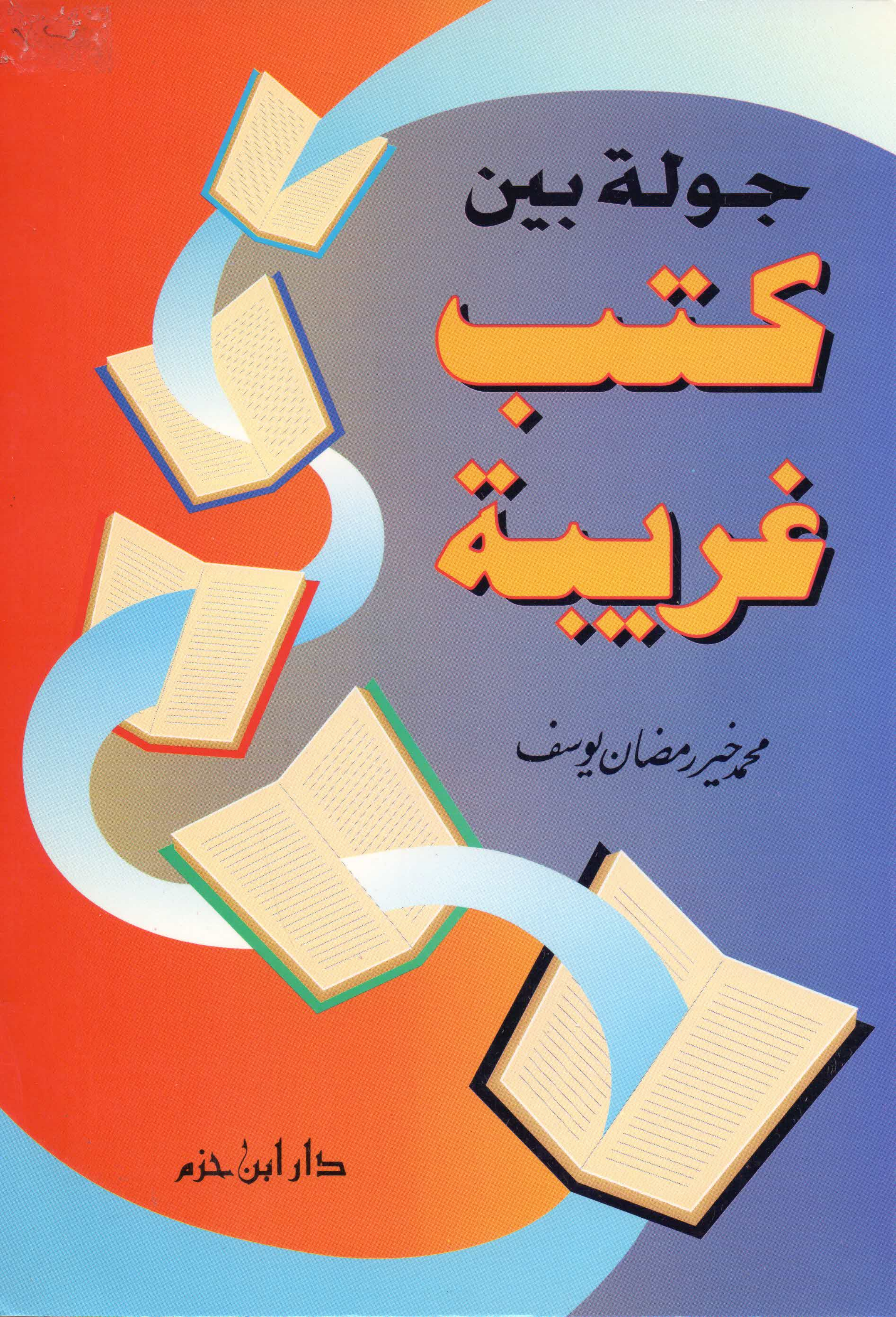

جولة بين
كتب
غريبة
محمد خير رمضان يوسف
دار ابن حزم

هذا الكتاب

- هل تعلم أن هناك مجانين نطقوا بكلام لا يقدر عليه العقلاء حتى تمنى بعضهم أن يكون مثلهم ؟!

- وأن هناك سبعين اسماً للكلب نظمها الإمام السيوطي في أرجوزة لطيفة حتى لا تلحقه معرّة الشاعر أبي العلاء المعرّي ؟!

- وأن هناك من فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب واورد براهين وأدلة على ذلك ؟!

- وأن هناك من ألف معجماً لغوياً يبحث في أسماء ما يتبقّى من الأشياء ؟! مثل : ما يتبقّى من المرق في أسفل القدر ، وما يبقى في الضرع من اللبن ، وما يبقى بين الأسنان من الطعام ؟!

ستقرأ عن هذا وغيره في هذا الكتاب !

سلسلة الكتب النادرة
(١)

جولة بين كتب عزيزة

محمد خير رمضان يوسف

دار ابن حزم

الطبعة الثانية
مَزيدة ومُنقحة
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٨٣١٣٣١

مقدمة

عزيزي القارئ ..

مَثَلِي ومَثَلك في هذا الكتاب، مثل زائر لبلاد بعيدة، رأى فيها عجائب الآثار وغرائب المخلوقات، فأراد أن يعرّفك بها ويتحفك بأخبارها !

.. تاريخنا الإسلامي بحر زاخر هائل.. لم تكتشف أعماقه بعد.. ولم تعرف ألوان أصدافه ومرجانه..

وفي جوانبه ترتمي بعض اللآلئ الغريبة هادئة حالمة.. هي بعض ما نقدمه لك في هذا الكتاب..

وعلى ظهره تعوم بواخر حاملة معها ثقافة أمة كانت سيدة العالم على مدى قرون طويلة..

وعلى سواحله يرابط حرّاس يخدمونه ويزيلون عنه غبار الأيام، ليقدّموه إلى جيل غاب عنه روعة ماضيه.. ويذودون عنه.. ويردون على شبهات الأشقياء ممن يريد أن يغمط حقه ويطمر آثاره..

• • •

وفيما أقدّمه هنا عرض لنوع خاص من تراثنا، يتلخص في أن مضمونه غريب، عجيب.. أو أن اختيار المؤلف لجمع مادته وإفرادها في مؤلَّف هو الغريب..

وعلى أبواب هذه الحديقة تلتقي بثلاثة عشر ضيفاً ينتظرون منك الجلوس ليلقوا على أسماعك بعض ما اختاروه لك ..

ولن يكونوا ثقلاء عليك.. فالحديث في أصله مسلٍّ.. ولكنه مفيد أيضاً.. وفائدته تقدّم في ثوب مشوّق جذّاب..

● يقدم لك أحد الأعلام الكبار في القرن العاشر الهجري «بدر الدين الغزي» مادة لغوية يضمنها الصفات السيئة التي يتصف بها آكل الطعام.. فتعرف من خلالها ماذا يقال لمن يزحف إلى المائدة قبل الجماعة، أو من لا يضمّ شفتيه عند المضغ، أو يمدّ عنقه، أو يتحدث بما تشمئزّ نفوس مؤاكليه من سمعه، أو من تكون عينه إلى لقم الحاضرين وأكلهم، أو من يخرج لسانه مثل البقرة.. الخ .

ولا يخفى على القارئ الفائدة من هذا الكتاب النفيس..

● ثم تمر بمؤرّخ قد علا رأسه الشيب، وتكاثفت تجاعيد وجهه.. تكاد تسمع أنينه قبل أن تجلس إليه، ثم تقرأ في وجهه الحزن.. وكأن الأسى يتقطّر من عينيه..

وقد تعرف أنه «محمد بن المرزبان» أحد التراجمة المشهورين في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري.. يحدثك عن «كلاب» هي أفضل من كثير من الأناسيّ.. وقد تعارضه في البداية، لكنك ستوافقه عندما ينتهي حديثه معك.. وقد تتذكر أشخاصاً آذوك بلا رحمة، أو اعتدوا على آخرين بدون سبب.. فتسلّم بقاعدة «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» ! ولهذا العالم أيضاً كتاب «ذمّ الثقلاء» و«مَنْ غدر وخان» !

● ثم قد تعجب من أديب توفي عام ٢٤٥هـ هو «محمد بن حبيب»، ألّف كتاباً أسماه «من نسب إلى أمه من الشعراء» حوى أخبار تسعة وثلاثين شاعراً نسب إلى أمه !

ومن ترجمته ستعرف أن هذا الأديب نفسه لا يُعرَف أبوه، وحبيب هي أمه.. كانت مولاة لمحمد بن العباس الهاشمي !

● ثم تمرّ بالحيمي اليمني، الأديب المغرم بالحمامات.. فيتحفك بأشعار لا أول لها ولا آخر عن الحمامات وخدمها.. وينصحك بما ينبغي أن تفعله وأنت تدخل الحمام أو تخرج منه.. ولا شك أنك ستخرج بنتيجة جديدة، وقد تعدّل من بعض عاداتك وأنت في طريقك إلى الحمام، أو بداخله، أو خارج منه !

وهكذا تأتيك بقية العناوين...

● المردفات من قريش، أي اللاتي أردفن زوجاً بعد زوج . ذكر المؤلف « أبو الحسن المدائني » ثمان وعشرين امرأة، مع أخبارهن التي لا تخلو من غرابة !

● تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه . ذكر فيه الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط من نُسب إلى اثنين من آبائه وأمهاته، أو إلى غير أبيه، ثم جدّاته أو أجنبي ممن ربّاه أو تبنّاه، أو غير ذلك من حالاته .

● عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري ! مجانين ينطقون بالحكمة.. ولهم أخبار عجيبة.. تلتقي فيه بسعدون المجنون وبهلول وعليان وجعيفران الموسوس وحيان بن خيثم المجنون وأبي جوالق وعبدان وغورك وأبي الشريك وريحانة.. وغيرهم .

● المراح في المزاح لبدر الدين الغزي، أورد فيه قصصاً وطرائف من سيرة النبي ﷺ والصحابة والتابعين رضي الله عنهم .

● التبرّي من معرّة المعرّي لجلال الدين السيوطي . وسبب تأليفه لهذا الكتاب أن المعرّي عثر برجل، فقال الرجل: من هذا الكلب ؟ فقال المعرّي: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً. وحتى لا يلحق السبُّ الإمامَ السيوطي –وغيره– قام بنظم أرجوزّة فريدة ضمَّنها سبعين اسماً للكلب.. وبذلك تبرّأ من معرّة المعرّي !

● المختار في كشف الأسرار لعبد الرحمن الجوبري . وهو كتاب عجيب حقاً، وكان الدافعَ الأول لإعداد هذا الكتاب، حيث كشف فيه المؤلف أسرار مهن كثيرة، وبيّن حيل ممتهنيها وألاعيبهم.. منهم : أدعياء النبوة، المنجمون، الذين يلعبون بالنار، الصيارف، الذين يصبغون بني آدم، أدعياء المشيخة، الذين يمشون بالنملة السليمانية.. الخ .

● المعجم في بقية الأشياء لأبي هلال العسكري. وللقارىء أن يتصوّر إفراد كتاب لغوي يبحث في أسماء ما يتبقى من الأشياء مثل : ما يبقى من المرق في أسفل القدر، آخر السهام الذي يبقى في الكنانة، ما يبقى في الضرع من اللبن،

ما بقى بين الأسنان من الطعام، البقية من الشباب، بقية الروح.. الخ .

● خطبة واصل بن عطاء التي تجنّب فيها الراء . والخطيب هنا هو رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين. كان على ما رزقه الله من البيان صاحب عاهة منطقية عرف بها، وهي لثغة شنيعة كانت تقع له في حرف الراء فتحرجه في ذلك أيّما إحراج، فيتجنبها ويأتي إلى سواها من الحروف. وخطبته هذه قالها في حفل جامع حُشد له أقدر الخطباء وأبرعهم.. وقد تجنّب فيها حرف الراء !

● من توفي عنها زوجها فأظهرت الغموم وباحت بالمكتوم، لابن المرزبان. وفيه صور نادرة عبّرت فيها نساء وفيّات لأزواجهن عن مشاعر الحزن والحب والوفاء .

● الروح : في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء لابن قيم الجوزية..

والحديث عن الروح لا يتصوّر أن يكون مسهباً طويلًا.. إلا أن مؤلف الكتاب بحر من العلم، وقد استطاع أن يجمع ما قيل في الروح من مكتبته الضخمة التي حوت جميع أنواع العلوم.. أجاب فيه على واحد وعشرين سؤالًا مما يتعلق بأرواح الأحياء والأموات..

وأخيرًا ..

فهذه تجربة أردت بها تشويق القارئ إلى تراثنا..

وتقديم ما هو مسلٍّ ومفيد في الوقت نفسه..

فهو نوع من أنواع الأدب الممتع الهادف..

ولا يخفى أن ما عرضته هنا ليس بأفضل الموجود..

بل هو انتقاء لبعض ما رأيته في غير ما عناء كبير..

ثم وفقني الله تعالى لإصدار مجموعة أخرى من هذه السلسلة، التي لقيت رواجاً طيباً بين القراء، مما يدلُّ على حبِّهم لتراثهم، وتشوُّفهم لأخباره.. وعسى أن يجتمع شمل هذه السلسلة لتصدر معاً، عن دار نشر واحدة، في يوم من الأيام، إن شاء الله. والذي صدر منها حتى إعادة طبع هذا الكتاب:

ـ كتب نادرة من التراث الإسلامي.

ـ نوادر الكتب: غريبها وطريفها.

ـ الغريب النادر من كتب التراث الإسلامي.

وما زال الخامس تحت الإعداد..

أسأل الله النفع بها، والأجر عليها..

والله الموفِّق.

٢٦/ ٥/ ١٤١٥هـ

آداب المؤاكلة

لبدر الدين الغزي (*)

يورد المؤلف واحداً وثمانين عيباً من عيوب المؤاكلة.. من علمها كان خبيراً بآدابها، والعاقل من يجتنب ذلك طاقته..

وننتقي من هذه العيوب ثلاثة وثلاثين عيباً ما زال لها -ولغيرها- آثار في حياتنا الاجتماعية والحضارية.. نذكر معناها بإيجاز دون القصص والتفاصيل الواردة :

الزاحف : هو الذي إذا قُدِّم الطعامُ زَحَفَ إلى المائدة قبل الجماعة..

المجوِّع : وهو ربّ المنزل الذي ينتظر بمؤاكليه إدراكَ طعامه حتى يجيعهم..

المدمِّع : وهو المتناول الطعام الحار ، ولا يصبر عليه إلى أن يبرد ، فيتناول اللقمة،.. فتدمع عيناه عند احتراق فمه .

(*) آداب المؤاكلة . بدر الدين محمد الغزّي ؛ تحقيق عمر موسى باشا . ـدمشق : مجمع اللغة العربية، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ، ٥٠ ص .

والمؤلف كما في الأعلام للزركلي : فقيه شافعي ، عالم بالأصول والتفسير والحديث . مولده ووفاته في دمشق . له مائة وبضعة عشر كتاباً ، منها ثلاثة تفاسير ، وحواش وشروح كثيرة ، ورسائل منها : «المطالع البدرية في المنازل الرومية» و «جواهر الذخائر في الكبائر والصغائر» قصيدة رائية في المواعظ . وهو أبو نجم الدين محمد المؤرخ ، وقد جمع ابنه أسماء كتبه في كتاب أفرده لذلك . ولزم بدر الدين العزلة في أواسط عمره ، فكان لا يزور أحداً من الأعيان ولا الحكام ، بل يقصدونه . وكان كريماً محسناً ، جعل لتلاميذه رواتب وأكسية وعطايا . ت ٩٨٤هـ . ا هـ .

والرسالة على صغر حجمها - كما يقول المحقق - تمثل مظهراً من مظاهر الحضارة ، لأنها تحوي على ما هو معروف في الحياة الاجتماعية من أسماء الأطعمة والمآكل والأشربة وما يتعلق بها من ذكر المائدة والسفرة والصحاف والقصاع وغير ذلك.. كما أنها توضح بعض العادات الاجتماعية والتقاليد الحضارية المرعية في عصر ننعته بالانحطاط والعقم والجمود والتأخر .. فقد شهد المؤلف زوال دولة المماليك وقيام الدولة العثمانية .

المبلّع : هو الذي لا ينهنه اللقمة في فيه حتى يبلعها قبل تكامل طحنها .

المُبَغْبِع : هو الذي إذا أراد الكلام لم يصبر إلى أن يبلع اللقمة؛ لكنه يتكلم في حال المضغ فيبعبع كالجمل، ولا يكاد يتفسّر كلامه، وخصوصاً مع كبر اللقمة .

المفرقِع : هو الذي لا يضمّ شفتيه عند المضغ، فيُسمع لأشداقه صوت من باب بيته؛ وربما ينتثر المأكول من أشداقه . والأدب أن لا يَسمعه الأقربُ إليه .

المعرِّض : هو الذي يعرّض بذكر ما أخلّ به ربُّ المنزل من الأطعمة، ولو في حكاية يوردها..

النفّاخ : هو الذي يتناول اللقمة الحارّة فينفخها بفيه ابتغاء تبريدها، وكان سبيله الكفُّ عن الطعام إلى أن يمكنه تناوله .

الممتدُّ : هو الذي يأكل من صحيفة بعيدة عنه، فيحتاج إلى مدِّ باعه والتزحزح نحوها .

المُغَثّي : وهو الذي يملأ ذقنه بالزفر لعدم ضبطه فمه أو يده عند وضعها في فمه ..

المقزِّز : هو الذي يتحدث على المائدة بما تشمئز نفوس مؤاكليه من سمعته..

العائب : هو الذي ينبّه على بعض عيوب الطعام..

الجَمَلِيّ : هو الذي لخشيته من تنقيط المرق على أثوابه يمدّ رقبته، ويتطاول إلى قُدّام كالجمل، حتى ينقط ما يقطر من فيه على المائدة أو المئزر ..

الواثب : وهو الذي ينهض ويثب ويتحرك عند وضع اللقمة حتى يكاد تسقط عنه عمامته؛ ويسمى أيضاً بالمختلّ ..

المخرِّب : هو الذي إذا أكل من صحيفة لم يُبق فيها إلا العظام !

المصفِّف : وهو الذي يقوم ويتشمّر عند حضور المائدة، ويصفف الصحاف والأطعمة يوهم أن هذا خدمة للحاضرين وليس كذلك، بل لينظر في الألوان ليجعل الطيب في مكانه هو..

الملقوّ : وهو الذي يأكل اللقمة الكبيرة، فترىٰ من خارج فكّه كالسلعة العظمية !

المُسابِق : وهو الذي يُمسك في يده لقمة قد أعدّها قبل أن يمضغ التي في فمه، فلا يُرىٰ فكّه خالياً عن مضغ، ولا يده خالية؛ وربما تكون عينه في لقمة أخرى .

الصامت : وهو من لا يعود ينطق، بل يُكِبُّ ويُطرق على الأكل، ويشتغل بالمضغ والبلع وأخذ الُلقَم ووضعها متصلًا ذلك بلا انفصال .

حاطب ليل : هو الذي لا يستقصي تأمُّلَ ما يأكله، فربما أكل ذبابة عساها تقع في الإناء وهو لا يشعر..

الصعبُ : وهو بضدّ حاطب ليل، وهو من ينقّي اللقمة في يده مما لا يحترز التنقية كقشور حمص، وعروق سلق، وغير ذلك، ويجعلها قُدَّامه منتثرة .

البحّاث : وهو من يبحث الطعام، ويفرّقه، وينظر في أجزائه حتى يُغثي نفس من يراه..

الحامد : وهو الذي يحمد الله تعالى جهراً في وسط الطعام، ولا سيّما ربُّ المنزل، فكأنه يُنْسَب في ذلك إلى تنبيه الحاضرين على الكفّ عن الطعام.. قال جحظة البرمكي:

وحَمْدُ الله يَحْسُن كلَّ وقت ... ولكن ليس في أول الطعام

المستهلك : هو الذي يهلك أضراسه بشرب الماء البارد عقب الطعام الحار..

المُشيِّع : وهو من عينُه إلى لقم الحاضرين وأَكْلِهم، فعينه لأخذ ذا، وضمّ ذا، وبلع ذا، ومضغ ذا، ووضع ذا .

المتلفّت : هو الذي لا يزال يتلفّت إلى الناحية التي يُنقَل منها الطعام كأنه يتوقع طعاماً آخر ، وإذا رُفع الطعام بقي متلفتاً إلى صحفاته كأنه يشيّعها بنظره، كأنه لم يشبع ..

المُحَدِّث : هو ربُّ المنزل يُشاغِل مؤاكليه بالحديث المتصل الذي يستدعي

الجواب، ويلهيهم بالإصغاء إليه عن الأكل، وذلك معدود من اللؤم؛ أما الحديث الذي لا يستدعي جوابها فهو من صاحب المائدة أحسن منه من المدعوّ والزائر .

المتعدّي : هو الذي يأكل ما بين يدي غيره .

الغصّاص : هو الذي يغفُل عن إعداد الماء قبل الأكل، فإذا غصّ أحد مؤاكليه لا يجد ما يسقيه .

النثّار : هو الذي يُفرِط في القهقهة، واللقمة في فيه، فيشاهد جلساؤه اللُّقمة ممضوغة داخل شدقه، ويتناثر منها ما انسحق .

البقّار : هو الذي يخرج لسانه كالبقرة وقتاً بعد وقت لِلَحْسِ شفتيه خارج فيه .

المغالي : هو الذي لا يَقْصِد في أكله إلا الغاليَ الثمن وإن كان مضرّاً، وإن كان غيره أطيب منه .

المُعَزِّل : هو الذي إذا شبع، وحضر طعام آخر، يتقيأ، ويأكل منه أيضاً .

المُوحِش : هو ربّ المنزل الذي يَحْرَدُ على غلمانه، أو يهدّد الطباخ، أو يضرب في داره جارية أو غلاماً عند اجتماع ندمائه أو حضور مائدتهم .

المتشكّي : هو رب المنزل إذا اشتكى السَّنَةَ، وغلاء الأسعار، واعتذر إلى ضيفه بشدّة ضيقه، وأقبح ما يكون في حال الأكل أو قبله .

أما بقية العيوب فهذه هي مفرداتها :

الحكّاك، المشنّع، المتثاقل، المقطّع، الرشّاف، الدفّاع، اللطّاع، المعطاش، الجرّاف، المزفّر، المدسّم، المستبدّ، المهمل، الفضولي، الطفيلي، الجردبيل، المشغل، النّهم، الناثِر، البهّات، العابث، المبقّي، المستَظْهِر، المحتمي، المرنّخ، الملعِق، المتطاول، المنقّط، المرشّش، الموسّخ، الضارب، المصّاص، الأكتع، الموهم، المتقيّء، الموزّع، الموفّر، المستأثر، اللّفاف، الممتحِن، المحتال، المفرّق، المختلِس، المستأذِن، المغتنم، المتخلّل .

وإذا كان المؤلف لم يستوفِ كل العيوب – كما قال هو نفسه– وإنما اقتصر على

بعض ما حضره منها.. فقد أورد الثعالبي في فقه اللغة مجموعة من الأوصاف المتعلقة بكثرة الأكل وترتيبها، أوردها المحقق في خاتمة هذه الرسالة وهي :

الشَّرِه، الجشع، الجَعِم، اللعوس واللحوس، العيصوم، الهبلّع، الجعظري، الهلقامة والتلقامة والجُراضِم، المجلّح، القحطيّ، المدهبل، المستجيع والشَّحَذَان واللَّهِم، الأرشم، اللعمظ واللُّعموظ، الوارش، الواغل، الضيفن، المقتّم، المحتفّ .

* * *

فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب
لمحمد بن المرزبان (*)

«ذكرتَ أعزّك الله زماننا هذا وفساد مودّة أهله وخسة أخلاقهم ولؤم طباعهم .

وأن أبعد الناس سفراً من كان سفره في طلب أخ صالح .

ومن حاول صاحباً يأمن زلّته ويدوم اغتباطه كان كصاحب الطريق الحيران الذي لا يزداد لنفسه إتعاباً إلا ازداد من غايته بُعداً .

وقد يروى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال :

كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا شوكاً لا ورق فيه »!

هذا ما قاله المؤلف في مقدمة رسالته الغريبة «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» الذي ألّفه في القرن الرابع الهجري.. القريب من عصر التابعين أو تابعيهم رحمهم الله !

(*) فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب . لأبي بكر محمد بن خلف بن المرزبان ؛ رواية أبي عمر محمد ابن العباس بن محمد بن زكريا بن حيوية الخزاعي .- القاهرة : عني بنشره إبراهيم يوسف النسّاخ بدار الكتب المصرية ، ١٣٤١هـ ، ٣٢ ص .

والمؤلف -كما في الأعلام-: مؤرخ، مترجم، عالم بالأدب.. كان أحد التراجمة، ينقل الكتب الفارسية إلى العربية، له أكثر من خمسين منقولاً من كتب الفرس. وله تصانيف منها : «الحاوي في علوم القرآن» و«الحماسة» و«الشعراء» وكتاب «المتيمين» و«الشراب» و«الجلساء والندماء» و«النساء والغزل» و«ذمّ الثقلاء» و«من غدر وخان».. الخ .

توفي سنة ٣٠٩هـ .

وقد ذكر جليل العطية في مجلة عالم الكتب مج ٧ ع ٤ ربيع الآخر ١٤٠٧هـ ص ٥٠٩ أن الكتاب نشر ثلاث مرّات . أولها ما أشرنا إليه في بيانات هذا الكتاب . وثانيها حققه لويس شيخو ونشره في مجلة (المشرق) ، ١ (بيروت ١٩٠٩) ص٥١٥-٥٣٣ . وأخيراً نشر مع ترجمته إلى الانكليزية بعناية المستشرق البريطاني ركس سميث و د. محمد عبدالحليم ، واعتمد المحققان على ثلاث مخطوطات ظفرا بها من برلين والقاهرة وباريس ..

وأنا أنقل لك بعض ما قاله فيها لتأخذه بحذر.. أو بغير حذر..

وقد تُسلّم ببعض ما أورده عندما تتذكّر أشخاصاً آذوك بلا رحمة.. أو اعتدوا على آخرين بدون سبب.. أو أنك قرأت عن فئة وتصوّرت أعمالهم فلم تجد في أشخاصها صفات بني البشر.. ولعلمت بعدها أن الكلاب الوفية بأصحابها هي خير من هؤلاء الذين يكذبون، ويعذّبون، ويظلمون، ويخونون.. ولا يتّعظون !

قال بعضهم :

ذهب الناس وانقضت دولة المجـ ـد فكل إلا القليل كلاب

إن من لم يكن على الناس ذئباً أكلته في ذا الزمان ذئاب

غير أن الوجوه في صور النا س وأبدانهم عليها الثياب

لست تلقى إلا كذوباً بخيلًا بين عينيه للإياس كتاب

وأنشد ابن أبي طاهر الكاتب :

حال عما عهدت ريب الزمان واستحالت مودة الإخوان

واستوى الناس في الخديعة والمكـ ـر فكل لسانه اثنان

وروي أن رجلًا قال لبعض الحكماء : أوصني، قال : ازهد في الدنيا ولا تنازع فيها أهلها، وانصح لله تعالى كنصح الكلب لأهله، فإنهم يجيعونه ويضربونه ويأبى إلا أن يحوطهم نصحاً .

وقال الأحنف بن قيس : إذا بصبص الكلب لك فثق بودّ منه ولا تثق ببصابص الناس، فربّ مبصبص خوّان .

وقال الشعبي : خير خصلة في الكلب أنه لا ينافق في محبته .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كلب أمين خير من إنسان خؤون .

ورأى جعفر بن سليمان كلباً مع مالك بن دينار فقال له : ما هذا ؟ قال : هذا خير من جليس السوء .

وذكر بعض الرواة أنه كان للربيع بن بدر كلب قد ربّاه ، فلما مات الربيع ودفن جعل الكلب يتضرّب على قبره حتى مات .

وكان للعامر بن عنترة كلاب صيد وماشية، وكان يحسن صحبتها، فلما مات عامر لزمت الكلاب قبره حتى ماتت عنده وتفرّق عنه الأهل والأقارب .

وأنشد المؤلف لأبي العباس الأزدي :

لكلب الناس إن فكرتَ فيهم أضرُّ عليك من كلب الكلاب
لأنّ الكلب تخسؤه فيخسأ وكلب الناس يربض للعتاب
وأن الكلب لا يؤذي جليساً وأنت الدهر من ذا في عذاب

وكان لإبراهيم بن هرمة كلاب إذا أبصرَت الأضياف بشّت لهم ولم تنبح وبصبصت بأذنابها بين أيديهم، فقال يمدحها :

ويدل ضيفي في الظلام إذا سرى إيقاد ناري أو نباح كلاب
حتى إذا واجهنه وعرفنه فدينه ببصابص الأذناب
وجعلن مما قد عرفن يقدنه ويكدن أن ينطقن بالترحاب

وقال بعض الشعراء :

أيها الشانىء الكلاب أصخ لي منك سمعاً ولا تكونن حبسا
إن في الكلب فاعلمن خصالًا من شريف الفعال يعددن خمسا
حفظ من كان محسناً ووفاء للذي يتخذه حرباً وحرسا
واتباع لرحلة وإذا ما صار نطق الشجاع للخوف همسا
وهو عون لنابح من بعيد مستجيراً بقربه حين أمسا

وأنشد أبو عبيدة لبعض الشعراء :

يعرج عنه جاره وشقيقه ويرغب فيه كلبه وهو ضاربه

قال أبو عبيدة :

قيل هذا الشعر في رجل من أهل البصرة، خرج إلى الجبّانة ينتظر ركابه، فاتبعه كلب له، فطرده وضربه وكره أن يتبعه، ورماه بحجر فأدماه، فأبى الكلب إلا أن يتبعه. فلما صار إلى الموضع وثب به قوم كانت لهم عنده طائلة، وكان معه جار له وأخ، فهربا عنه وتركاه وأسلماه، فجرح جراحات كثيرة، ورُمِي به في بئر، وحثوا

عليه بالتراب حتى واروه ولم يشكّوا في موته، والكلب مع هذا يهرّ عليهم وهم يرجمونه . فلما انصرفوا أتى الكلب إلى رأس البئر، فلم يزل يعوي ويبحث بالتراب بمخالبه حتى ظهر رأس صاحبه وفيه نفس يتردد، وقد كان أشرف على التلف ولم يبق فيه إلا حشاشة نفسه ووصل إليه الروح . فبينما هو كذلك إذ مرّ أناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنه يحفر قبراً، فجاؤوا فإذا هم بالرجل على تلك الحال، فاستخرجوه حياً وحملوه إلى أهله .

فزعم أبو عبيدة أن ذلك الموضع يدعى بئر الكلب ...

قال المؤلف :

وحدّثني صديق لي أنه كان له صديق ماتت امرأته وخلّفت صبياً، وكان له كلب قد ربّاه، فترك يوماً ولده في الدار مع الكلب وخرج لبعض الحوائج، وعاد بعد ساعة فرأى الكلب في الدهليز وهو ملوث بالدم وجهه وبوزه كله ؛ فظن الرجل أنه قد قتل ابنه وأكله. فعمد إلى الكلب فقتله قبل أن يدخل الدار، ثم دخل الدار فوجد الصبي نائماً في مهده، وإلى جانبه بقيةُ أفعى قد قتله الكلب وأكل بعضه ؛ فندم الرجل على قتله أشدّ ندامة ، ودفن الكلب..!

وحديثاً قال الشاعر أحمد محفوظ يمدح كلباً :

تماض الوفاء وعزّني الإنسان ... وأراه بين طبائع الحيوان

فالكلب يحمل للصديق مودة ... بيضاء يحفظها مدى الأزمان

لا ينمحي عند الشدائد حلوها ... أو تنتهي بطوارق الحدثان

سيّان في القصر المشيد وفاؤها ... أو بين متربة بدار هوان

* * *

من نسب إلى أمه من الشعراء

لمحمد بن حبيب (*)

يضمّ هذا الكتاب طائفة من شعراء العرب الذين عرفوا بنسبتهم إلى أمهاتهم، وهو ضرب من التأليف طريف، يعالجه إمام من أئمة الأخبار والأنساب ورواية الشعر.. وقد ضمّ أسماء تسعة وثلاثين شاعراً هم – كما نسبوا إلى أمهاتهم– :

ابن شعوب، ابن أم حوليّ، عطّاف بن بشّة الشيباني، ابن طوعة الشيباني، ربيعة ابن غزالة الكندي، ابن حجلة الأسدي، الستدري بن عيساء الجعفري، حبيب بن خُدرة الهلالي، ابن عيزارة الهذلي، قطبة بن الزّبعرى، قيس بن الحُدادية، عمرو بن الصماء الخزاعي، عياض بن أم شهمة الخزاعي، العريان بن أم سهلة النبهاني، ابن السَّجراء، حميد بن طاعة السَّكوني، ابن الدُّمَينة الخثعمي، يزيد بن ضبّة، ابن الظرية، ابن فسوة، ابن الهيجمانة العبسي، ابن أمّ الحزنة العبدي، عمرو بن منبّدة، ابن الذيبة، شبيب بن البرصاء، بعض بن أم قرفة، ابن ميّادة المري، بشامة بن الغدير، أسعد بن الغدير .

والكتاب صغير الحجم (١٥ صفحة) نختار منه أخباراً قليلة .

● حميد بن طاعة السكوني. قال لعمر بن الخطاب :

إنك مسترعى وإنا رعيّـــة   وإنك مدعوٌّ بسيماك يا عمرْ

(*) كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء يوجد ضمن المجموعة الأولى من «نوادر المخطوطات» بتحقيق عبدالسلام هارون.–ط ٢.– القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م ص ص ٨١ – ٩٦ .

والمؤلف : محمد بن حبيب بن جعفر (ت ٢٤٥) – كما في مقدمة المحقق – من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والأنساب، ثقة مؤدّب، ولا يعرف أبوه، وحبيب أمّه، وكانت أمه مولاة لمحمد بن العباس الهاشمي.. ومن نسبه تدرك سرّ اهتمامه بهذا البحث .

لدى يوم شرٌّ شرٌّ لشِراره وخيرٌ لمن كانت معائشه الخِيَرْ

وقال :

ما إن رأينا مثلك ابن الخطّاب أبرَّ بالدين وبالأحساب

بعد النبي صاحب الكتاب

● و«ابن فسوة» وهو عتيبة بن مرداس الكعبي، وإنما قيل له ابن فسوة لأنه نزل بهم رجل من عبد القيس يقال له ابن فسوة، فكان يعيَّر به، فقال له مرداس : أنا أشتري منك هذا الاسم بكبش. فاشتراه، فقال أخو عتيبة :

حوّل مولانا علينا اسم أمّه ألا رُبَّ مولًى ناقص غير زائد

● و«ابن الذيبة» وهي أمه، امرأة من فهم، واسمه ربيعة بن عبد ياليل، واسم الذيبة قِلابة، فلقبت الذيبة، وهو الذي يقول :

إني لمن أنكرني ابن الذيبه كريمة عفيفة منسوبه

● وشبيب بن البرصاء[1] وهي أمه، وهو شبيب بن زيد بن جمرة بن عوف بن أبي حارثة، وأمه القِرضابة بنت الحارث.. وهو الذي يقول :

لا خير في العيدان إلا صلابها ولا ناهضات الطير إلا صقورها

تَبيَّنُ أدبارُ الأمور إذا انقضت وتقبل أشباهاً عليك صدورها

---

(١) قال ابن دريد : كان النبي ﷺ خطب البرصاء إلى أبيها، فقال : إن بها سوءًا – وهو كاذب – فرجع فوجد بها برصاً .

حدائق التمام في الكلام على ما يتعلق بالحمام

لأحمد بن محمد الحيمي (*)

درج الكتّاب من السلف على أن يشيروا في مقدّمات كتبهم إلى الموضوع الذي سيبحثون فيه. ويتفنن بعضهم في تضمين الأسطر الأولى من مقدّماتهم كلماتٍ منمّقةً فيها حمد وشكر لله تعالى ، مأخوذة من المادة التي يبحث فيها الكتاب . ولهذا نجد اختلاف الأساليب في بداية مقدمات كتب علوم القرآن والحديث، والأدب، والتاريخ، والعلوم التطبيقية..

(*) حدائق التمام في الكلام على ما يتعلق بالحمّام . شهاب الدين أحمد بن محمد الحيمي الكوكباني ؛ تحقيق عبدالله محمد الحبشي . -ط ٢ .- [صنعاء] : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ؛ بيروت : دار المناهل، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م ، ٢٥٥ ص .

والمؤلف أديب ومؤرخ ينتهي نسبه إلى نشوان الحميري حسب قوله في كتابه «طيب السمر» ، وكان والده محمد بن الحسن الحيمي أحد أدباء اليمن المعدودين والمتأهلين لنشر العلم والدراسة، ومن المؤلفات التي أوردها له المحقق : «طيب السمر في أوقات السحر» وهو من أهم كتبه الأدبية، «المفاخرة بين الروضة وبئر العزب» ، «نجوم الليل على غرر الخيل» ، «سلافة العاصر» . وقد توفي سنة ١١٥٣هـ .

ويذكر المحقق أن هذا الكتاب فريد في بابه، بل فريد في التراث اليمني، إذ لم يؤلف أحد غير الحيمي في موضوع الحمّام وآدابه . وممن ألف فيه – من غير اليمنيين :

- كتاب الحمّام وآدابه لإبراهيم بن إسحق الحربي، ت ٢٨٥هـ .
- آداب دخول الحمّام لعبدالكريم بن محمد السمعاني، ت ٥٦٢هـ .
- آداب الحمّام لمحمد بن عبدالله الشبلي، ت ٧١٢هـ .
- الإلمام بآداب دخول الحمّام لمحمد بن علي بن حمزة، ت ٧٦٥هـ .
- عقود الكمام في متعلقات الحمّام لابن الملقن .
- رفع اللثام عن أحكام الحمّام لابن طولون .
- غاية الاحترام فيما ورد في الحمّام للسابق .
- النزهة الذهبية في أحكام الحمّام الشرعية والطبية للمناوي .
- القول التام في آداب دخول الحمّام لأحمد بن العماد الأقفهسي، ت ٨٠٨هـ .
- كتاب في آداب الحمّام لمحمد بن الكركي، ت ٨٣٥هـ .
- رسالة في الحمّام لداود الأنطاكي، ت ١٠٠٨هـ .

فماذا قال مؤلف هذا الكتاب في الأسطر الأولى من مقدمته وهو يتحدث عن الحمّامات؟! وماذا يوجد في الحمّام سوى الماء الحار والغرف المسخّنة والأقداح وألواح الصابون ؟!

لننظر معاً إلى هذه التشبيهات البديعة والمعاني اللطيفة التي استطاع أن يستخرجها المؤلف ويُقدّم من خلالها صورة أدبية رائعة.. في مقدمة نادرة.. لكتاب نادر :

« الحمد لله على نعمه منه حديثة وقديمة، وكم له من أياد تهمل ولا كهمول ديمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تملأ الأكياس وتضيق عنها خزائن الصدور من السادة الأكياس . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذي وضح به من الإسلام مبيّنه، بعد ما شد مئزره في نصرة الحق وعرق بالكدح فيه جبينه،ودارت أقداحه مملوءة بشراب قراح، وهيهات لا والله لقد تنزهت عن شراب الراح، ونبعت أنابيبه وامتلأت حياضه وتضلّعت بالعدل ركاه ودلاه فسقيت بها رياضه، وزال بصابون دينه وسخ الكفر من الأجساد ، وخضبت به كف الإيمان مسرّة وفرحاً لما حزن به الأعداء والحساد، صلى الله عليه وعلى آله المصعدين لأنفاس المعاندين بالزفرات، المفيضين على خدودهم كإفاضة العرق من أجسام المستحمين متسابق العبرات ما انتعم مستحم بصدر حمّام، وما دار في المقامات كلام، فقيل حكى الحارث بن همام » .

وحتى لا يبقى القارىء حيران في سبب تسمية الكتاب بـ «حدائق النمام..» الذي قد لا يعرف له إلا معنى واحداً، فقد بين المؤلف أن «النّمّام» نبت كالنعنع إلا أنه أشد منه بياضاً.. وقيل هو نوع من الريحان.. وسمّي نمّاماً لطيب رائحته كأنه ينمّ على حامله .

وقد ذكره الأدباء في أشعارهم وورّوا به عن النمام الذي هو رافع الحديث بين القوم على جهة الإفساد والشر، وجاؤوا في ذلك بعجائب وتواردوا فيه على الغرائب . قال صفي الدين الحلّي :

أقول وطرف النرجس الغضّ شاخص إليّ وللنمّام حولي إلمام
أيارب حتى في الحدائق أعين علينا وحتى في الرياحين نمّام

في الكلام على الحمّام

سمي الحمّام حمّاماً لما فيه من الماء الحار، ولأنه يعرّق، أخذ له هذا الاسم من الحميم، وهو الماء الشديد الحرارة .

ومن أسماء الحمّام التي عدّدها الكاتب :

الدبّاس، الديماس، البلّان .

قال :

وأول من دخل الحمّام ووضعت له النورة والصابون : سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، فلما وجد حرّها قال : أوه من عذاب الله[1] .

وقد قسّم الحمّام إلى ثلاثة بيوت، كل بيت أسخن من الذي قبله لئلا يكون الانتقال من الحار إلى البارد فجأة، والبيت الأول مبرّد رطب، والثاني مسخن رطب، والثالث مسخن مجفف، ولذلك يكون الانتقال من بيوته على التدريج .

وأفضل الحمّامات مطلقاً الحمّام العالي المرتفع في بنائه، لئلا تنجّس الأنفاس المختلفة فيفسد بها وينحل الهواء فيه بسرعة بعد التحلل والانبساط، ويلطف البخار الصاعد إلى الأعلى كما نشاهده من فيه الإنبيق[2]، فإن اتسع مع ذلك كان أقوى في تفريق الهواء وتلطيفه وقبوله التكثف فيما ذكر، ولا سيما إن كان الحمّام قديم البناء طويل العهد، لأن الجديد فاسد بأبخرة الأحجار والطين وعفونة ما يتسرب من الماء في أجزائه وبرده. وحدُّ القِدم فيه أن يكون له من يوم بُني سبع سنين فما فوق، فإنه يكون غاية ..

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن والعقيلي في الضعفاء والطبراني وابن عدي عن أبي موسى (انظر الفتح الكبير ٤٧٠/١) .

(٢) آلة للتقطير .

وينبغي أن يفرش الحمّام بأحجار الرخام، إذا لم تكن تلك الأحجار ملساً، يزلق بها الداخل، فإن كانت كذلك فهو معدود من المنكرات فتجب إزالته وقلعه .

وأن تكثر الميازيب والتلافيف في دهاليزه، ويحكم طبق أبوابه لتقوم الحرارة، وينبغي أن يصان من الغبار والدخان والتبخّر بنحو كسّاحات الطريق، خصوصاً إذا كانت القدور قديمة، ولا يفتح إلى الجنوب، وأن تكثر فيه المنافذ، ويستر بنحو البلور للضوء ويكشف وقت الحرارة لفصل ما انعقد وتلطيفه، ويعاهد بالإصلاح إذا عَتُق، والبخورات الطيبة والتنظيف وإزالة ما مكث من الماء في الأباريز – وهي الحيضان – لئلا يفسد فيضرّ .

وينبغي أن يكون مسلخ الحمّام – أي مخلعه الذي تخلع فيه الثياب عن الأبدان – لطيف الصنعة واسع الفضاء ..

والحمّام في الأصل وضع للتنظيف، من نحو الأوساخ والدرن والعفونات والقمل . ولذا قال الرقاشي[1] وقد دخل عليه بعض الأمراء الحمّام فقال له : ذُمَّهُ، فقال : يهتك الأستار ويولِّد الأقذار ويذهب بالوقار. فقال : امدحه، فقال : يذهب القَشَافة[2]، ويعقب النظافة، ويفسّ التُّخمة، ويطيب النعمة .

ووضع الحمّام أيضاً لدفع أمراض جمّة، كالحميات والتخم والإعياء وأنواع الهيضة والنزلات .

وينبغي لداخل الحمّام أن يدخله عند آخر الهضم، بحيث أنه يخرج منه محتاجاً إلى الغذاء، فإن في ذلك حفظ الصحة .

قال بعضهم : وإياك أن تدخل الحمّام وتخرج منه بجسمك عارياً، وإذا أردت الخروج فاخرج إلى المسلخ متدرّجاً، وأفرغ عليك ثوباً نظيفاً مبخّراً... ويكره أيضاً شرب الماء البارد عقيب الحمّام والطعام الحار والتعب والمجامعة والأكل، فإن ذلك جميعه مضرّ جداً .

---

(١) هو الفضل بن عبدالصمد ، شاعر متهتك عاصر أبا نواس، وتوفي نحو سنة ٢٠٠هـ . الأعلام .

(٢) رثاثة الهيئة وسوء الحالة .

قال ابن الدروي :

إن عيش الحمّام أطيب عيش غير أن المقام فيه قليل
فهي مثل الملوك تصفي لك الود ولكن ودّه مستحيل
جنّة تكره الإقامة فيها وجحيم يطيب فيه الدخول
فكأن الغريق فيه كليم وكأن الحريق فيها خليل

وقال المؤرخ المترسل شهاب الدين بن فضل الله :

وحمّامكم كعبة للوفود تحج إليها حفاة عراه
يكرر صوت أنابيبه كتاب الطهارة باب المياه

وقال الشيخ صدر الدين بن عبدالحق الحنفي رحمه الله تعالى في الحمّام :

وجنة لا تنطفي نارها ندخلها وهي لنا مقصيَّةْ
نعيمنا فيها بلا طاعة عذابنا فيها بلا معصيةْ

وقال أحد الظرفاء في الحمّام وناره ومائه :

رُبَّ حمّام تلظى كتلظي كل وامق
ثم أجرى عبرات ومعها بالوجد ناطق
فغدا منه ومني عاشق في جوف عاشق

دخل ابن بقي الحمّام وفيه الطليطلي الأعمى فقال ابن بقي : أجز قولي :

حمّامنا كزمان القيض[1] محترق وفيه للمرء برد غير ذي ضرر

فقال مجيزاً قوله :

ضدّان ينعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطر

وقال آخر في التورية (وينسب أيضاً لابن بقي) :

إن حمّامنا الذي نحن فيه أي ماء له وأيّة نار
قد نزلنا به على ابن معين وروينا عنه صحيح البخاري

---

(١) هكذا في الأصل، وقد يكون الأصح : القيظ .

وقد أعجب المؤلف بهذين البيتين فقال :

لله دَرُّ هذا الأديب ما أظرفه وأصنعه لحسن سبك التورية، وهي – أعني التورية – هنا وقعت في محلّين : المحلّ الأول في قوله : «ابن معين» فإنه بفتح الميم صفة لماء الحمّام، والماء المعين معروف، وابن معين أيضاً الإمام الحافظ المحدّث المشهور يحيى بن معين رحمه الله تعالى ، وبذلك عرفت التورية الأولى . المحل الثاني في قوله : «صحيح البخاري» فإن البخار هو كل متصعّد من الشيء الحارّ، والحمّام لا بد له من البخار. والبخاري بزيادة الياء محدّث مشهور شهرته كالشمس في كبد السماء رضي الله عنه. وصحيح البخاري في الحديث النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام مشهور سائر بين المحدثين في الآفاق سير المثل، وبذلك عرفت التورية الثانية .

وقد جاءت التورية بالبخاري للعلامة بدر الدين الدماميني المخزومي[1] رحمه الله حيث قال في عود البخور :

أتاني منك عود أطربتني ... مواقع جبره عند انكساري
له نفس ذكي قد روينا ... حديث الطيب فيه عن البخاري

وأنشد الكاتب معتذراً إلى أحد الملوك وقد أراد دخوله الحمّام بصحبته :

مولاي لا ترج لي دخولًا ... إلى دباس يزيل وفري
لست إليه الزمان آوي ... فأنت تكسي وذاك يعري

وقال جمال الدين محمد بن نباتة المصري في ذم حمّام دخله مع صديقه :

دعاني صديق لحمّامه ... فأوقعني في العذاب الأليم
كلام يزيد وماء يقِلّ ... فبئس الصديق وبئس الحميم

وقال آخر في ذلك :

إن حمّامنا التي نحن فيها ... هي في حاجة إلى حمّام

---

(١) أديب مصري وفاته سنة ٨٢٧هـ . الأعلام .

قد دخلنا ونحن أبناء سام وخرجنا ونحن أبنـاء حام

وقد استدرك المؤلف الحيمي عليه فقال : بل خرجتم أيها الأديب وأنتم في الحقيقة أبناء بارد لا أبناء حامي ، ثم أنشد فقال :

أراكم عند ذا الحمّام قوماً وقعتم في المضايق والزحام
وأبناء بارد أنتم فلم ذا تقول بأنكم أبناء حام

قال : ومقصود هذا الناظم أنهم دخلوه بيضاً وخرجوا منه سوداً لشدة البرد التي بها تحصل الكمودة في اللون والزرقة في الجسد .

وقال الشيخ صدر الدين بن عبدالحق :

جهنم حمّامكم نارها تقطع أكبادنا بالظما
وفيها عُصاة لهم صيحة وإن يستغيثوا يغاثوا بما

وقال صفي الدين الحلي رحمه الله :

إن حمّامكم قد ضمت حميماً وحمّاما فهي مثل النار ساءت مستقراً ومقاما

وقال بعض الأدباء المتأخرين :

ألا رُبّ حمّام بدا لي حميمه وظاهره ماء وباطنه نار
كإخوان هذا العصر من تلق منهم فللودّ إعلان وللحقد إسرار

وأنشد الكاتب :

وحمّام سوء به الجسم قد تغيّر من برده واكفهرّ
فلو دخل الكلب فيه عوى وصاح من البرد جهراً وهرّ

وهرير الكلب هو الصوت الذي يخرج منه دون نباحه وذلك من قلة صبره على البرد .

وفي المفاضلة بين الحمّامات ما قاله ابن نباتة المصري لما فضّل حمّامات مصر على حمّامات الشام فقال :

أحواض حمّام الشام أتسمعي لي كلمتين
لا تذكري أحواض مصر فأنت دون القلّتين!

وقد استنصر عز الدين الموصلي رحمه الله تعالى لحمّامات الشام على حمّامات مصر مناقضاً لجمال الدين بن نباتة في نظمه هذا فقال :

إليك حياض حمّامات مصر ولا تتكبّري عندي بمين
حياض الشام أحلى منك ماء وأطهر وهي دون القلتين

وفي آخر هذا الفصل نبّه المؤلف إلى أن الحمّام من جملة الأشياء التي نصّ عليها العلماء أنها من شروط المصر ، ولا يسمى المصر مصراً إلا إذا جمعها، وهي سبعة، نظمها قاضي القضاة جمال الدين محمد بن الحسن الحيمي فقال :

المصر في صحة التجميع مشترط فاسمع حقيقة ما يحويه تفصيلا
والٍ وقاض طبيب جامع وكذا سوق ونهر وحمّام كما قيلا

في الكلام على خادم الحمّام

قال أهل أصول الفقه في كتبهم : إن خادم الحمّام غير عدل لأنه من ذوي الحرف الدنيّة، فإن العقلاء يعدّونه بها ساقطاً غير كفء، ومن كان بهذه الحيثية فهو غير عدل فلا يصح تقليده عندهم ولو كان مجتهداً .

دخل رضي الدين جعفر بن المطهر الجرموزي الحمّام هو وصديق له، فاتفق أن تولى خدمة ذلك الصديق رجل حمّامي ألحى، فلما أخذ في خدمته جعل العرق يتساقط من لحيته عليه فقال السيد جعفر :

خويدم الحمّام ذو لحية مثالها في الطول لا يشهر
قلنا وقد بلّلنا ماؤها ما ذاك إلا عارض ممطر

وقال ابن أبي الأصبع في ذمّ قيّم حمّام :

وقيّم كَلَّمتْ جسمي أنامله بغير ألسنة تكليم خرصان

إن أمسك اليد مني كاد يكسرها   أو سرّح الشعر من فوديَّ آذاني
وليس يمسك إمساكاً بمعرفة   ولا يسرّح تسريحاً بإحسان

ويورد المؤلف أبياتاً كثيرة في العشق والمجون عن خدم الحمّامات، كما ينشئ الشعر في ذلك، ولم نوردها لتفاهتها، بل ولقلة الأدب في كثير منها. وقد توزعت أخبار كثيرة شبيهة بذلك في الفحش والمجون.. وكثيراً ما يعارض أشعاراً أخرى، ويتباهى بأنه أتى بـ «أفحش منها» رحمه الله وغفر له .

دخــول الحمّــام

لا بأس من دخول الحمّام، ومن المستحب عند الشافعية لدخوله الغسل، كما صرّح به في «اللباب» من كتبهم .

وقد صح دخول أصحاب رسول الله ﷺ حمّامات الشام. فأما النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يدخل حمّاماً قط .

وعلى داخله التزام آداب من الواجبات والسنن والأمور الطبية :

الواجبــات :

عليه واجبان اثنان في عورته وواجبان اثنان في عورة غيره .

الأول من الواجبين في عورته صيانتها من نظر الغير، فإن كشف العورات في الحمّام معدود من المنكرات، ولذا عُدّ كاشف عورته في الحمّام غير عدل .

والثاني من الواجبين في عورة داخل الحمّام صيانتها من لمس الغير لها، فلا يتولى أمرها وإزالة درنها إلا هو بيده، فيمنع الدلك لجسده من لمس فخذيه وما بين سرّته إلى عانته ولو لمسها بحائل وهو الكيس المعروف الذي يدلك به الجسد، فإن لمس العورة من الغير حرام كالنظر إليها . وفي جواز لمس ما ليس بعورة من البدن لإزالة الوسخ احتمال...

وأما دلك رأسه ويديه وظهره فلا بأس أن يفعله غيره ..

والأول من الواجبين في عورة الغير أن يغضّ بصر نفسه عنها .
والثاني أن ينهى عن كشفها، لأن النهي عن المنكرات واجب، وعليه النهي فيه .

السـنن :

ومما ذكره المؤلف :

– النية.. قصد التنظيف المحبوب والتطهّر والتزيّن للصلاة دون التنعّم والترفّه .

– أن يدخل وقت الخلوة ويتكلّف تخلية الحمّام .

– أن لا يدخله إذا رأى عارياً بل يرجع .

– أن يذكر بحرّ الحمّام حرَّ النار الأخروية.

– أن لا يكثر صب الماء، بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال، ولو علم الحمّامي الزيادة عليه لكرهها، فهو غير مأذون في الزيادة، ولا سيّما الماء الحار فله علاج وفيه تعب، لأنه لا يسخن إلا بمؤونة تلحقه .

– أن لا يسلم في الدخول على من كان في بيوت الحمّام الداخلة... لأن الناس يكونون مشغولين بالتنظيف... وقد نص عليه الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء .

– أن لا يكثر الكلام في الحمّام..

– أن لا يكثر اللعب بغمس يده وإنائه الطاهرين في الحياض، فإن ذلك نوع من العبث .

قال الحيمي المؤلف :

لا شك أن الحمّام وقت الضحى فيه من الانتعام ما لا في غيره من سائر الأوقات، فإن الإنسان بعد خروجه منه في ذلك الوقت يجد من الأفراح والسرور مالا يحدّ بوصف.. هكذا تتبعنا ذلك عن تجربة ، ولا ندري أيجد غيرنا ما نجد أم لا !

ثم أورد المنافع الطبية للحمّام وما ينبغي عمله أو اجتنابه.. مررنا على بعضها سابقاً..

ثم ذكر بعض الأدوية التي تستعمل في الحمّام أثناء دلك الجسم.. وذكر أموراً غريبة لا أظن أن أحداً يستعملها الآن .

ثم أورد المؤلف قصيدة طويلة - من نظمه - ضمّنها الواجبات والسنن التي يليق بداخل الحمّام التزامها، وبعض الأمور الطبية، ومطلعها :

صاح إن كنت تطلب الإنعاما فاكهاً فيه فالزم الحمّاما

وذيّل هذا الفصل بمجموعات شعرية.. منها قول ابن رشيق :

ولم أدخل الحمّام ساعة بينهم طلّاب نعيم قد رضيت ببؤس
ولكن لتجري عبرتي مطمئنة فأبكي ولا يدري بذاك جليسي

وقال صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي وقد دخل الحمّام معه رجلان أحدهما يلقب بالكبسي والآخر يسمى مطهراً :

في صدر ذا الحمّام مغرم حبكم قد صدّه الكبسي أن يتكبسا
ومطهر بين الصبابة والصبا أضحى ببول ذوي الغرام منجّسا

في أشياء متفرقة

● دخل بعض المفرطين في طول القامة حمّاماً، فلما استلقى في صدر الحمّام على ظهره، جعل بعض خادمي الحمّام يعالجه بالتغميز.. فبدأ بالأعلى من أعضاء الرجل المستحم الطويل كالرأس والكتف واليدين ونحو ذلك حتى أكمل عمله، وأراد أن ينزل إلى عند قدميه لمعالجتها فقال الخادم للرجل : خاطرك يا سيدي، فقال : أين تذهب ؟ فقال : مرادي أنزل عند قدميك.. أراد هذا الخادم الكناية اللطيفة، عن إفراط الرجل في طول القامة، وأن النزول من عند رأسه إلى عند قدميه مسافة بعيدة كالسفر البعيد القاصي .

● وقف العتبي بباب إسماعيل بن جعفر يطلب الإذن في الدخول عليه، فقال له الحاجب : هو في الحمّام ، فقال :

وأمير إذا أراد طعامـــــاً قال حجّابه أتى الحمّامـــا
فيكون الجواب مني للحـا جب ما إن أردت إلا السلاما
لست آتيكم من الدهر إلا كل يوم نويت فيه الصياما
إني قد جعلت كل طعـام كان حلالكم عليّ حراما

قال المؤلف : سألني بعض المستفيدين عن قول الشاعر :

إني لأكره علماً لا يكون معي إذا خلوت به في جوف حمّام

وقال : لِمَ خصّ ناظم هذا البيت الخلوة في جوف الحمّام دون غيرها من سائر الخلوات ؟ فقلت له : إنما خصّ الخلوة في جوفه لأن المقام مقام تخلٍّ وتجرد عن كل شيء ليس مع الإنسان فيه إلا مئزر مبلول بالماء والعرق.. متجرد عن ملابسه جميعاً مما لا يظن أن في جيبه قرطاساً قد رقمت فيه مسائل من العلم ربما راجع نظره فيها، ولأنه أيضاً مع الخلوة في جوف الحمّام لا يمكن منه أن يستدعي كتاباً من الكتب لينظر فيه إذا عرض له بحث من المباحث العلمية..

سؤال : مسلمون ونصارى ويهود، وجملتهم عشرون، دخلوا حمّاماً ووزنوا عشرين درهماً، المسلم وزن نصف درهم، والنصراني وزن درهمين، واليهودي ثلاثة دراهم، كم كان عدد كل منهم ؟

الجواب : المسلمون أربعة عشر، والنصارى خمسة، واليهود واحد .

ما ينبغي للخارج من الحمّام أن يفعله

– أن يخرج من الحمّام تدريجياً بشرط تبريد الأطراف بالماء البارد .
– أن يشكر الله تعالى على نعمته .
– أن يستغفر الله .
– أن يرش جسده بالماء البارد فإنه ينعش القوة المسترخية من الكرب، ومن لهيب الحميات .

– وأن يغسل قدميه ووجهه بالماء البارد .
– تنظيف ما يجتمع من الوسخ في معاطف أذنيه ومسح ما يظهر منه وما يجتمع في مقر الصماخ .
– أن يسكن في المخلع ويتكىء ويستلقي ويستريح ويطمئن .
– أن يتناول مع بقائه في المسلخ شيئاً من الأطياب العطرة .
– أن يلبس من الثياب النظيفة الناعمة.. لأن البدن مع ذلك لا يقدر على ملامسة ما خشن من الثياب .
– أن يتدثّر بالأدفئة التي تمنع البرد أن يتصل بالبدن، فإن نكاية البرد للبدن عقيب الحمّام نكاية شديدة .
– أن يلبث في المخلع قدراً من الزمان فلا يعجل بالخروج .
– أن يخرج إلى دار فيها فراش أنيق ليّن الجوانب ناعم الملمس غير خشن .
– أن لا يؤخر الطعام عقيب خروجه سيّما إذا كان دخوله الحمّام على الريق .
– أن لا يتناول من الطعام إلا الأنيق من أطعمة المترفين الخفيف الذي لا يثقل على المعدة .
– أن لا يتناول من الأشربة إلا المناسب لطبعه .
– النوم عقيب الخروج منه سيّما في الصيف .

وما ينبغي للخارج من الحمّام أن يجتنبه

– الخروج عارياً سيّما في الشتاء .
– التنشف بالمناشف المشهورة فإنه يورث البرص .
– صبّ الماء البارد على الرأس .
– شرب الماء، فإن الأطباء قد نهوا عنه.. وقد جمع تلك الأمور صفي الدين الحلي في نظم له حيث قال :

توقّ شرب الماء في خمسة فإنهــا جالبــة للسقـــام
عقيب حمّـامك والنـوم والإ غمـاء والبـاه وأكل الطعـام

وأما ما ينبغي من تهنئة الخارج من الحمّام فالأحسن أن يقال له بعد خروجه : طاب حمّـامك ..

* * *

وأخشى – عزيزي القارئ – أن يكون فيما قرأته دافع لك لأنّ تدخل الحمّام من جديد.. وتخرج منه بتجربة جديدة !

وما عليّ إلا أن أقول لك : طاب حمّامك .

* * *

المردفات من قريش

لأبي الحسن المدائني (*)

كلمة «المردفات» يراد بها اللائي أردفن زوجاً بعد زوج .

وقد ذكر المؤلف من هذه المردفات ثمان وعشرين امرأة من قريش مع أخبارهن التي لا تخلو من غرابة !

وبما أن الكتاب صغير الحجم (٢٣ صفحة) فسنكتفي هنا بإيراد قصة واحدة منها . وهي عن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن تفيل ، أمها ميمونة بنت الحضرمي ابن الصعب . كانت عند عبدالله بن أبي بكر بن أبي قحافة فأحبّها ، فكان ربّما ترك الصلاة جماعة ، فأمره أبو بكر رضي الله عنه بطلاقها وقال : قد فَتَنتك عن دينك وشغلتك عن معِيشتك. فطلّقْها. فطلَّقَها، وقال :

ولم أر مثلي طلّق اليوم مثلَها ولا مثلَها في غير جُرْمٍ تُطَلَّقُ

(*) كتاب المردفات من قريش يوجد ضمن المجموعة الأولى من «نوادر المخطوطات» ، بتحقيق عبد السلام هارون ــ ط ٢ ــ القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٢م ص ص ٥٧ - ٨٠ .

وهي رسالة قيّمة وطريفة في موضوعها ، وهو موضوع حيوي اجتماعي فيه الإفصاح عن كثير من غوامض الحياة الاجتماعية في العصر العباسي .

والمؤلف : أبو الحسن المدائني علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف ، بصري سكن المدائن ، ثم انتقل عنها إلى بغداد ، فلم يزل بها حتى وافاه الأجل . وكان مولى لعبد الرحمن بن سمرة القرشي ، وهذا يكشف لنا القناع عن سرّ تأليفه لهذه الرسالة -كما قال المحقق- يتناول فيها أخبار النساء المردفات من قريش . وكان المدائني ميّالاً إلى التأليف في أخبار العرب وأنسابهم وأيامهم ، عالماً بالفتوح والمغازي.. أربت مؤلفاته -التي تناولها ابن النديم بالسّرد- على مائتين وأربعين مصنفاً .

ولد سنة ١٣٥هـ وتوفي سنة ٢٢٥هـ .

لها خُلق سمحٌ ورأي ومنصب وخَلْقٌ سويٌّ في الحياء ومَصْدَق[1]
أعاتِكُ لا أنساك ما هبَّت الصَّبا وما ناح قُمْريُّ الحمام المطوّق
أعاتك لا أنساك ما حجَّ راكب ولاح نجم في السماء محلِّقُ
أعاتك قلبي كلَّ يوم وليلة إليك بما تخفي النفوسُ معلَّقُ
ولولا اتّقاء الله في حقِّ والد وطاعتُه ما كان منا التفرّق

فبلغ أبا بكر شعره فأمره فراجَعها ، وكانت عنده حتى مات شهيداً ، أصابه سهم في حصار الطائف فانتفض به جرحه فمات ، فقال لعاتكة حين احتُضر : لك حديقة من مالي ولا تزوّجي ، ففعلت ذلك . وقال حين راجعها :

أعاتك قد طُلِّقت عني بغُصَّةٍ وراجَعْت للأمر الذي هو كائن
كذلِكِ أمر الله غادٍ ورائحٌ على الناس فيه أُلفة وتباينُ
وقد كان قلبي للتفرُّق طائراً وقلبي لما قد قرَّب الله ساكن
أعاتك إني لا أرى فيك سَقْطة وإنك قد حَلَّت عليك المحاسن
وإنك ممن زيّن الله أَمْرَهُ وليس لما قد زيّن الله شائن

فمات عبدالله وترك سبعة دنانير، فقال أبو بكر : إنا لله ، كيف يصبر ابني على سبع كيّات؟

فلما مات عبدالله قالت عاتكة :

فجعت بخير الناس بعد نبيِّهم وبعد أبي بكر وما كان قَصَّرا
فآليت لا تنفكُّ عيني سخِينة عليكَ ولا ينفكّ جلديَ أغبرا
مدى الدهر ما غنّت حمامة أيكةٍ وما طرد الليلُ الصباحَ المنوَّرَا
فللّه عينا من رأى مثله فتًى أكرَّ وأحمى في الجهاد وأصبرا

(١) المصدق : الصدق .

إذا شرَعت فيه الأسنّة خاضها   إلى الموت حتى يترك الرُّمح أحمرا

فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت : إني قد جعلت على نفسي ما لا أقدر معه على التزويج . فقال : استفتي ابن أبي طالب رضي الله عنه . فاستفتته فقال : ردّي عليهم ما أخذتِه منهم وتزوّجي . فردّت الحديقة ، فتزوّجها عمر رضي الله عنه ، فلما دخل بها أَوْلَمَ ، فدنا عليّ رضي الله عنه من خِدْرها وقال :

فآليت لا تنفكّ عيني سخينة   عليكَ ولا ينفكّ جلدي أغبرا !

فبكت، فقال عمر : ما أردت إلا أن تفسد علينا أهلنا . ويقال : قال هذه المقالة لها عبدالرحمن بن أبي بكر. فلما قتل عمر قالت :

فجّعنـــي فيروز لا درَّ درُّه   بأبيضَ تالٍ للقــرآن منيب
رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدى   أخي ثقة في النائبات نجيب
متى ما يقل لا يُكذِب القولَ فعلُه   سريع إلى الخيرات غيرِ قطوب

وقالت :

عيــنُ جودي بعبرة ونحيب   لا تملّي على الإمام النجيب
فجَّعَتني المنون بالفارس المقــ   ـدِم يوم الهيــاج والتذبــيب[1]
عصمة الناس والمعين على الدّهـ   ـر وغيث المنتاب والمحـروب
قل لأهل الضرّاء والبـأس موتوا   قد سَقَتْهُ المنون كأس شَعُوب

فخطبها طلحة بن عبيدالله ، فمشى في أمرها هبّار بن الأسود فأفسد عليه، فتزوجها الزبير بن العوام ، فنهاها عن الخروج إلى المسجد فقالت : أتنهاني عن الخروج إلى الصلاة وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله ». فأعرض عن ذلك أياماً ثم قعد لها في طريقها ليلًا ، فلمّا مرت به ضرب عجيزتها بيده ... فرجعت إلى بيتها واسترجعت وقالت : سوءة، إنا لله .

---

(١) التذبيب : إكثار الذبّ والدفع .

وتركت الخروج، فقال لها الزبير : مالكِ تركت الصلاة في المسجد.؟ قالت : قد فسد الناس أبا عبدالله ! فقتل عنها فقالت :

غدر ابن جُرموزٍ بفارس بهمةٍ   يوم اللقاء وكان غير معرَّد
يا عمرو لو نبّهْتَهُ لوجدتــه   لا طائشاً رَعِشَ الجَنان ولا اليد
شلّت يمينك إن قتلت لمسلماً   حلّت عليك عقوبةُ المتعمّـد
كم غَمرة قد خاضها لم ينهه   عنها طرادُك يا ابن فقع القردَد

ثم خطبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالت : إني أشفق عليك من القتل، لم أتزوّج رجلًا إلا قُتل : فتزوّجها محمد بن أبي بكر، فخرجت معه إلى مصر فقُتل ومُثِل به، فقالت :

إن نقتلوا أم تَمْثُلوا بمحمّـد   فما كان من شأن النساء ولا الخمر

فتزوجها عمرو بن العاص .

* * *

تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه

للفيروزابادي(*)

قال المؤلف :

« هذا كتاب وضعته في ذكر من نُسب إلى اثنين من آبائه وأمهاته ، أو إلى غير أبيه ثم جدّاته ، أو أجنبي ممن ربّاه أو تبنّاه أو غير ذلك من حالاته ، وذلك لما رأيت قرّاء الحديث تزلُّ مفاصلهم(1) فيلحنون في ذلك وأخواتِه ، فأفردته في جزء راجياً أن يكون لوجه الله تعالى بحتاً لرَوْم(2) مرضاته..» .

والكتاب صغير الحجم (١٣ صفحة) نكتفي بالإشارة إلى بعض ما ورد فيه :

● بشير بن عَقْربة : عقربة أُمُّه. والعقربة في كلام العرب : المرأة العاقلة الخدوم . وبشير صحابي، ولم أقف على اسم أبيه . وكنيته أبو اليمان، نزل الشام، روى حديثاً واحداً وهو : « من قام بخطبة لا يلتمس بها إلا رياء وسُمعة وقفه الله عز وجلّ يوم القيامة موقف رياء وسمعة» .

(*) كتاب تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه، موجود ضمن المجموعة الأولى من «نوادر المخطوطات» بتحقيق عبدالسلام هارون .ــ ط ٢ .ــ القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ -١٩٧٢م ص ص ٩٧ - ١١٠ .

والمؤلف - كما عرّف به المحقق في مقدمته - في غنى عن التعريف فهو صاحب القاموس المحيط : أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزابادي ، مولده بكارزين من بلاد فارس سنة ٧٢٩هـ ، أخذ العلم عن مشايخ العلم بالعراق ومصر والشام والروم والهند ، ثم دخل زبيد سنة ٧٩٦هـ فتلقاه سلطان اليمن الأشرف إسماعيل، وولاه قضاء اليمن كله، واستمرّ بزبيد عشرين سنة ، وتوفي بها سنة ٨١٧هـ .

وهذا الكتاب يشبه في موضوعه الكتاب السابق لهذا ، ويمتاز بأنه لم يختص بذكر الشعراء فحسب ، بل هو عام في ذلك .

و «الأبيه» -من عنوان الكتاب- : وصف، من أبه للشيء وبالشيء ، أي فطن له .

(1) المفاصل : جمع مفصل ، كمنبر ، وهو اللسان .

(2) البحت : الخالص . الرَّوْم : الطلب .

● عاصم بن بَهْدَلة، أبو بكر الأسدي، من القرّاء، وبهدلة أمُّه . وهو عاصم ابن أبي النجود. والبهدلة : الإسراع والخفة في المشي. والبَهْدل : جرو الضّبُع .

● علقمة بن الفغواء، صحابي... وهو علقمة بن عبيد الخزاعي. والفغواء: لقب أمه . والفغا : مَيَل في الفم .

● عمرو بن شعواء اليافعي، صحابي. شعواء أمُّه، ولم أقف على اسم أبيه . والشعواء : المنتشرة الشعر، ومنه شجرة شعواء : منتشرة الأغصان. وغارة شعواء : متفرّقة .

● محمد بن القُوطِية . وهي أمُّه، نُسبت إلى قُوط بن حام بن نوح . وهو أبو السودان والهند والسند . وهو محمد بن عمر بن عبدالعزيز بن إبراهيم بن عيسى ابن مزاحم الأندلسي الإشبيلي الأصل، القرطبي المولد . كان من أعلم أهل زمانه ، ماهراً باللغة والعربية، حافظاً للحديث والفقه والشعر، لا يُلحق شأوه . وكان متنسّكاً متعبّداً .

حكى أبو بكر يحيى بن هذيل التميمي، أنه توجّه يوماً إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة ، وهو من بقاع الأرض الطيبة المونقة ، وصادف ابن القوطيّة صادراً عنها . قال : فلما رآني عرَّج علي واستبشّ بلقائي ، فقلت له على البديهة مداعباً :

من أين أقبلت يا مَنْ لا شبيه له ... ومَنْ هو الشمس والدنيا له فلك

فتبسَّم وأجاب بسرعة :

من منزلٍ يُعجبُ النسّاكَ خَلْوَتُه ... وفيه سِتْرٌ عن الفُتّاك إن فتكوا

* * *

عقلاء المجانين

لابن حبيب النيسابوري (*)

قال المؤلف رحمه الله :

« سألني بعض أصحابي.. أن أصنّف كتاباً في «عقلاء المجانين» وأوصافهم وأخبارهم، وكنت أتغامس[1] عنه إلى أن تمادى به السؤال، فلم أجد بداً من إسعافه بطلبته، وإجابته إلى بغيته... وهو كتاب يكفي الناظر فيه الترداد وتصفح الكتاب، وأرجو أني لم أسبق إلى مثله » .

وذكر في مقدمته أن المجنون عند الناس من يسمّع[2] ويسبّ ويرمي ويخرق

(*) عقلاء المجانين . لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري ، توفي سنة ٤٠٦هـ ، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول .ـ بيروت : دار الكتب العلمية ، [-١٤٠٥هـ ، -١٩٨م] ، ١٦٠ صفحة .

والكتاب تحقيقه ضعيف، قدّم له المحقق بأربعة أسطر، ونقل نصف صفحة عما قاله محمد كرد علي في الكتاب ، وصفحة ترجم فيها للمؤلف ، وأورد فهرساً واحداً للموضوعات ، ولم يذكر ما اعتمد عليه في تحقيقه من مخطوط أو مطبوع ، كما لاتوجد في الهوامش أية إشارة إلى مقابلة نسخ ، إضافة إلى أخطاء لا تحصى .

والمؤلف -كما في الأعلام للزركلي جـ ٢ ص٢١٣ -ط ٥- هو :

الحسن بن محمد بن حبيب بن أيوب ، أبو القاسم النيسابوري : أديب، واعظ، مفسر، صاحب «عقلاء المجانين» صنف في القراءات والتفسير والأدب . وتناقل الناس تصانيفه . ومن كتبه «التنزيل وترتيبه» كان كرّامي المذهب ، ثم تحوّل شافعياً . وله شعر جيد في الوعظ، أورد «الداوودي» ثلاث قطع منه نقلًا عن ياقوت .

كما صدر الكتاب ضمن مجموعة الرسائل الكمالية (رقم ١٢) .ـ الطائف : مكتبة المعارف ، ضمن مجموعة حمل عنوان (في الملح والطرائف) .

كما صدر بتحقيق عمر الأسعد عن دار النفائس ببيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ٣٨٤ ص .

(١) من معاني «غمس» التي جاءت في المعجم الوسيط : غاب، ويبدو أن هذا هو المقصود بها .

(٢) سمّع بفلان : شهره وفضحه، وأذاع عنه عيباً .

الثوب، أو من يخالفهم في عاداتهم فيجيء بما ينكرون، ولذلك سمّت الأمم الرسل مجانين لأنهم شقّوا عصاهم فنابذوهم وأتوا بخلاف ما هم فيه .

ثم أورد ما اتهمت به قريش النبي ﷺ من الجنون.. والعبر المستفادة من هذه الأخبار .

وعن أصل الجنون –في اللغة– قال إنه يعني الاستتار . ومن أسماء المجنون في اللغة :

الأحمق .

والمعتوه : وهو الذي يولد مجنوناً .

والأخرق : وهو الذي لا يحسن التقدير والتدبير .

والمائق ، والموق : [الحمق في غباوة] .

والرقيع والمرقعان : وهو الأحمق الذي يتمزق عليه رأيه وعقله .

والممسوس : وهو الذي يتخبطه الجن أو الشيطان .

والمخبل ، والأنوك، والبوهة، والذولة، والموتة، والنطاة، والعرهاة، والأولق، والمهووس، والهلباجة : وهو الأحمق الكثير الأكل، واللكع : وهو الأحمق اللئيم، والجذب، والهجاجة : وهو الأحمق الكثير الخطأ، والرشاع، والزهدن، والملغ، والجعبس، والمألوس .. ثم أورد الأمثال المضروبة في الحمق والحمقى، وأسماء جنون الدواب، وضروب المجانين..

قيل لأحدهم : من المجنون ؟ قال : من لم يبال ما نقص من دينه بعد أن سلمت له دنياه .

ويقول الفضيل بن عياض : دعاك الله إلى دار السلام، وقد آثرت في دنياك المقام، وحذرك عدوك الشيطان، وأنت مؤالفه طول الزمان، وأمرك بخلاف هولك، وأنت معانيه صباحك ومساءك، فهل الحمق إلا ما أنت فيه ؟

ثم بيّن من يسمى مجنوناً بلا حقيقة، كالشاب والمتصابي والسكران .

وأورد في الفسق قول أحدهم :

ألا قل للأحبـــة يرفقونـــا   فإن الحب أورثنـــا الجنونـــا

ولبعض الأعراب :

أحبك حباً لو علمت ببعضه أصابك من وجد عليك جنون
لطيفاً على الأحشاء أما نهاره فسكت وأمـا ليلـه فأنين

ورأى أحدهم مجنوناً مصفداً بالحديد يتمرغ في التراب ويقول :

ألا ليت أن الحب يعشق مرة فيعرف ماذا كان بالناس يصنع
يقولون خذ بالصبر إنك هالك ولَلصبر مني في مصابي أجزع

ثم ذكر من تجانّ وتحامق وهو صحيح العقل ليرى شأنه ويستره على الناس .

وأورد فصلًا لمن تحامق لينال غنى ، ومنه قول أحدهم :

جننت نفسي لكي أنال غنى فالعقل في ذا الزمان حرمان
يا عاذلي لا تلـم أخـا حمق تضحك منه فالحمق ألـوان

وفي «من تحامق ليرخي وقتاً ويطيب عيشاً» أورد :

تحامق تطب عيشاً ولا تك عاقلًا فعقل الفتى في ذا الزمان عدوه
فكم قد رأينا ذا نهى صار خاملًا وذا حمق في الحمق منه سموه

وأورد في فصل «من تحامق لينجو من بلاء وآفة» قصة إدخال عبادة المخنث على الواثق، والناس يضربون ويقتلون في امتحان خلق القرآن، فقال في نفسه : والله لئن امتحنني قتلني، فبدأته فقلت : أعظم الله أجرك أيها الخليفة . قال : فيمن ؟ قلت : في القرآن . قال : ويحك، والقرآن يموت ؟ قلت : نعم كل مخلوق يموت، فإذا مات القرآن في شعبان فبأي شيء يصلي الناس في رمضان ؟ فقال : أخرجوه فإنه مجنون .

وبانتهاء الفصول تبدأ قصص «عقلاء المجانين» حيث يذكر المؤلف اسم «العاقل المجنون» ، ثم يورد الأخبار التي قيلت عنه، حتى آخر الكتاب .

ومن هؤلاء : سعدون المجنون المتوفى سنة ١٩٠هـ ، وكان من عقلاء المجانين وحكمائهم – كما قال ابن الجوزي – وله أخبار ملاح وكلام سديد ونظم ونثر، يستحسن الطوف في البلاد، ودوّنت أخباره .

يقول سعدون :

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذي هو فيه

وما خير من تخفى عليه عيوبه ويبدو له العيب الذي لأخيه

وكيف أرى عيباً وعيبي ظاهر وما يعرف السوآت غير سفيه

وقال مرة :

ولا خير في شكوى إلى غير مشتكي ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر

وقال مرة لهارون الرشيد :

هب الدنيـــا تواتيكـــا ألـــيس الموت يأتيكـــا

فمـــا تصنـــع بالدنيـــا وظـــل الميـــل يكفيكـــا

ألا يا طالب الدنيـــا دع الدنيـــا لشانيكـــا

فمـــا أضحكـــك الدهـــر كـــذاك الدهـــر يبكيكـــا

وكتب إلى المأمون وقد بنى قصراً :

يا من بنى القصر في الدنيا وشيّده أسست قصرك حيث السيل والغرق

لو كنت تغني بذخر أنت ذاخره أسسته حيث لا سوس ولا حرق

والموت مصطبح منكم ومغتبق فاحتل لنفسك قبل الورد يا حمق

واذكر ثموداً وعاداً أين أنفسهم فلو بقي أحد من بعدهم لبقوا

وخرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة إذ بصر بهلولًا المجنون على قصبة وخلفه الصبيان وهو يعدو فقال : من هذا ؟ قالوا : بهلول المجنون. قال : كنت أشتهي أن أراه فادعوه من غير ترويع، فقالوا له : أجب أمير المؤمنين، فعدا على قصبته، فقال الرشيد : السلام عليك يا بهلول، فقال : وعليك السلام يا أمير المؤمنين، قال : كنت إليك بالأشواق، قال : لكني لم أشتق إليك، قال : عظني يا بهلول، قال : وبم أعظك ؟ هذه قصورهم وهذه قبورهم، قال : زدني فقد أحسنت، قال : ياأمير المؤمنين، من رزقه الله مالًا وجمالًا فعف في جماله وواسى في ماله كتب في ديوان الأبرار؛ فظن الرشيد أنه يريد شيئاً فقال : قد أمرنا لك أن تقضي دينك، فقال : لا يا أمير المؤمنين، لا يقضى الدين بدين، اردد الحق إلى أهله

واقض دين نفسك من نفسك. قال : فإنا قد أمرنا أن يجرى عليك، فقال : يا أمير المؤمنين أترى الله يعطيك وينساني ؟ ثم ولى هارباً .

وقال بعض أهل الكوفة : ولد لبعض أمراء الكوفة ابنة فساءه ذلك، فاحتجب وامتنع من الطعام والشراب، فأتى بهلول حاجبه فقال : ائذن لي على الأمير، هذا وقت دخولي عليه. فلما وقف بين يديه قال : أيها الأمير ما هذا الحزن ؟ أجزعت لذات سوّى هيأته ربُّ العالمين ؟ أيسرُّك أن لك مكانها ابناً مثلي ؟ قال : ويحك فرجت عني . فدعا بالطعام وأذن للناس .

ولبهلول :

إذا خان الأمير وكاتبــــاه وقاضي الأرض داهن في القضاء
فويـل ثم ويــل ثم ويــل لأهل الأرض من أهل السماء

وسئل بهلول عن رجل مات وخلّف ابناً وابنة وزوجة ولم يخلف من المال شيئاً ، كيف تكون القسمة ؟ فقال : للابنة الثكل، وللزوجة خراب البيت، وما بقي من الهمّ فللعصبة !

قال السري مولى ثوبان : أدركت بالكوفة مجنوناً يقال له عليان، وكان يأوي إلى دكان طحان، وكانت معه عصى لا تفارقه، وكان الصبيان قد علموا وقت مسيره إلى الدكان، فيجتمعون ويعبثون به، فإذا بلغت أذيتهم منه قال للطحان : قد حمي الوطيس وطاب اللقاء وأنا على بصيرة من أمري فما ترى ؟ فيقول : شأنك، فيثب وهو يقول :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه وأعرض عن ذكر العواقب جانبا

ثم يشد مئزره ويقول :

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بإظهار

ثم يتناول العصا وبشدّ عليهم ويقول :

أشدّ على الكتيبــة لا أبــالي أحتفي كان فيها أم سواهـا

والصبيان يهربون، فإذا أرهقهم طرح الصبيان أنفسهم وكشفوا عن عوراتهم، فيعرض عنهم ويقول : عورة المؤمن حمى، لولا ذلك لتلف عمرو بن العاص يوم

صفين، والأخذ بكلام علي رضي الله عنه أولى بنا، أمرنا أن لانتبع مولياً ولا نذفف على جريح، ثم يرجع ويقول :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

ثم يعود إلى دكان الطحان ويلقي عصاه ويتمثل :

وألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وورد عن جعيفرن الموسوس - من أهل سامر، توفي سنة ٢٠٨هـ - ماحكاه عبدالله بن عثمان، قال : أبطأ عنا جعيفران يوماً، ثم عاد إلينا وهو عريان يشتد، والصبيان يرمونه بالحجارة، فسلّم علي وقال : يا عبد الله :

رأيت الناس يدعوني مجنوناً على حال
ولو كنت كقارون وفرعون بإقبال
وما ذا عليّ حق ولكن هيبة المال

قلت : أيحضرك شيء على غير هذه القافية في هذا المعنى حتى نعلم أنك شاعر، فقال :

رأيت الناس يدعوني بمجنون على عمد
وما بي اليوم من حسن ولا لبس ولا عقد
ولو كنت كقارون ووالي رحبة الجند
رأوني راجح العقل جميلًا حسن القدّ
وما ذاك على حق ولكن هيبة النقد

فقلت : أعندك مزيد من هذا ؟ فإن جئت بالثالثة أقررت لك بأنك شاعر فأطرق ثم قال :

قم بنا إلى المنزل فقمنا معه فقال :

رأيت الناس يرموني بوسواس لأيامي
وما كنت أخا موق قديماً قبل تهيامي
ولكني أرى ذاك لإقداعي وإعلامي
ولو كنت أخا ملك وإسراج وإلجام

إذا أكرمني الناس ولم أرم بإلمام
وكانوا كل أوقات يباهون بإكرامي

قال : فأدخلته منزلي وغديته وقعدت أنا وقوم من أصحابنا ثم عاتبناه على ماصنع بنفسه ووبخناه بأنواع اللوم فأنشأ يقول :

رأيت الناس أحياناً ليرموني بوسواس
ومن يضبط يا هذا مقال الناس في الناس
فدع ما قاله الناس وعجّل صفوة الكاس
فإن الناس يغرون بأمثالي وأجناسي
ولو كنت أخا ملك أتوني بين جلاسي
يقومون ويفدون على الرجلين والراس

ثم قال : يا فتى هذه أربعة وقام قومة، فقال لي أحد أصحابي : لو جئنا بقينة، قلت : ومن يجيء بقينة بين يدي مجنون ؟ دعونا اليوم نلهو فقد حلّ علينا، فقال :

وندامى أكلوني إن تغيبت قليلا
زعموا أني مجنون أرى العري جميلا
كيف لا أرعى وما لبصر في الناس مثيلا
باسطاً للجود كفاً قائلًا خيراً مقولا
إنني أهوى كرام الناس لا أهوى البخيلا
إن أكن سؤتكم اليوم فخلوا لي سبيلا
وابتغوا غيري نديماً لكم مني بديلا
وأتموا يومكم حيّا كمُ الله طويلا[1]

قال : فندمنا على ما كان منا فقلنا له : معك نلذ ونفرح، فأتيناه بثوب فطرحناه عليه وأتيناه بقينة فأنشدت له :

---

(١) يوجد خلل في وزن بعض الأبيات هنا وهناك.. وقد نقلت الأبيات كما هي في الكتاب، كما أشرت إلى أن تحقيق الكتاب ضعيف !

لا تزوّج فتهلكـــــــا حذرك اليـــــوم حذركا
إن للعـــــرس مرجعـــــاً عينها يورث البكـــــا
لا يغـــرّنك سقـــف بيـــ ـــت وفـــرش ومتكـــا

وأنشد حيان بن خيثم المجنون :

فهام بحب الله في القفر سابحاً وحطت على سوق القدوم رواحله
نهاه النهى فارتاح للخوف باطنه وخاف وعيد الله فالحق شاغله
فلما جرى في القلب ماء يقينه فأنبت زرعاً لم تجف سنابله
طوى دهره بالصوم حتى كأنما عليه يمينٌ أنه لا يزايله
فعاد بحزن قد جرى في ضميره تنوح به أعضاؤه ومفاصله
يسرّ الفتى ما كان قدّم من تقى إذا عرف الداء الذي هو قاتله

وقال بعضهم :

خرج أبو جوالق يوماً فلقيه بعض أصدقائه فقال : إلى أين يا أبو جوالق ؟ فقال : أشتري حماراً . فقال له صديقه : قل إن شاء الله، فقال : ما هذا موضع إن شاء الله، الدراهم في كمي والحمار في السوق. قال : ومضى إلى السوق فسُرقت منه دراهمه، فعاد فرآه صديقه حزيناً فقال له : اشتريت الحمار ؟ فقال له : سُرقت الدراهم إن شاء الله .

وقال عمرو بن مدرك : مرّ عبدان المجنون يوماً بقوم من بني تيم الله بن ثعلبة، فعبثوا به وآذوه فقال : يا بني تيم الله، ما أعلم في الدنيا خيراً منكم، قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : بنو أسد ليس فيهم مجنون غيري وقد قيدوني وسلسلوني، وكلكم مجانين ليس فيكم مقيّد واحد .

وفي قصة طويلة جرت بين ميمون الواسطي والحجاج نقتطف منها قطعة صغيرة، وهي عندما قال الحجاج : يا ميمون امدحني فأُحسن جائزتك. قال : يا حجاج ! والله ما أعرف فيك خيراً فأقوله، وإن قلت ما أعرف فيك ذممتك، ولكن ما أذم الناس، لأن في نفسي ما شغلني عن عيب غيري. قال الحجاج : قد

أمرت لك بأربعة آلاف درهم. قال : المال فرُدَّه إلى الموضع الذي سرق منه، ولا تكن لصاً جواداً تجود به على من إن ذمَّك لا يضرّك، وإن مدحك لا ينفعك. خلِّ سبيلي أسأل الله قوتاً يغني عن نوالك ونوال أضرابك. فخلّى سبيله ..

وقال أبو إسحق بن إبراهيم الابّلي : رأيت غورك المجنون يوماً خارجاً من الحمّام والصبيان قيام يضربونه ويؤذونه وهو يبكي فقلت له : ما خبرك يا أبا محمد ؟ قال : قد آذاني هؤلاء الصبيان، أما يكفيني ما أنا فيه من العشق والجنون ؟ قلت : ما أظنك بمجنون. قال : بلى والله وبي عشق شديد. قلت : هل قلت في عشقك شيئاً ؟ قال : نعم، ثم أنشد :

جنون وعشق ذا يروح وذا يغدو فهذا له حدٌّ وهذا له حدُّ
هما استوطنا قلبي وجسمي كلاهما فلم يبق لي قلب صحيح ولا جلد
وقد سكنا تحت الحشا وتحالفا على مهجة أن لا يفارقها الجهد
وأي طبيب يستطيع بحيلة يعالج من داءين ما منهما بدُّ

وقال محمد بن الزراد : قلت لغورك يوماً : أخبرني بأحسن ما قلت في الحب. قال :

كتمت جنوني وهو في القلب كامن فلما استوى والحب أغلبه الحبُّ
وقلبي والجسم الصحيح مذيبه فلما أذاب الجسم ذلَّ له القلب
فجسمي نحيل للجنون وللهوى فهذا له نهب وهذا له نهب

ورأى محمد بن المبارك عباساً المجنون وهو يهيم في جبل لبنان، فلما رآه استخفى منه، فناشده الله أن يظهر فظهر، فقال له : كيف تصبر على الوحدة في هذه القفار، فضحك وأنشأ يقول :

يا حبيب القلوب من لي سواكا ارحم اليوم مذنباً قد أتاكا
أنت سؤلي ومنيتي وسروري قد أبى القلب أن يحب سواكا
يا مرادي وسيدي واعتمادي طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس سؤلي من الجنان نعيم غير أني أريدهـــــا لأراكا

وعن مجانين الأعراب يورد قصة مجنون من بني سعد حكاها الأصمعي حيث قال :

بينما أنا قاعد عند محمد بن سليمان الهاشمي والي البصرة، إذ دخل عليه رجل فقال : أصلح الله الأمير، إن بالمربد أعرابياً مجنوناً من بني سعد لا يتكلم إلا بالشعر، فقال : عليّ به، فأُتي به، فلما نظر الأعرابي إليه أنشأ يقول :

حيّاك رب الناس من أمير يا فاضل الأصل عظيم الخير

فقال محمد : وأنت فحيّاك الله يا أخا بني سعد، فقال الأعرابي :

إني أتاني الفارس الجلواز[1] والقلب قد طار به اهتزاز

فقال الأمير : إنما بعثنا إليك لنشتري ناقتك، فقال الأعرابي :

ما قال شيئاً في شراء الناقه وقد أتى بالجهل والحماقه

قال الأمير : وما الذي أتى ؟ فقال :

قد شقّ سربالي وشق بردتي وكان زيني في الملا وجدتي

فقال الأمير : إذاً نخلع عليك. فقال الأعرابي :

نعّمك الله وأرخى بالك وأكثر الله لنا أمثالك

فقال الأمير : بكم اشتريتها ؟ فقال :

شراؤها عشر ببطن مكّه من الدنانير القيام السكّه
ولن أبيع الدهر أو أزاد إني لربح في الشرا معتاد

قال الأمير : فبكم آخذها ؟ فقال :

خذها بعشر وبخمس وازنه فإنها ناقة صدوق مازنه

فقال الأمير : بل تحط وتحسن، فقال :

سبحان ربي ذو الجلال العالي تسأل إحساني وأنت الوالي

---

(١) الشرطي.

قال الأمير : فنأخذها منك ولا نعطيك شيئاً فقال :

فأين ربي ذو الجلال الأفضل إن أنت لم تخش الإله فافعل

فقال الأمير : إني أسألك أن تحط. فقال الأعرابي :

والله ما يجبرني ما تعطي لا يداني الفقر مني حطّي

فأمر له بألف درهم وثياب من خاصة ملبسه. فقال الأعربي :

إني رمتني نحوك الفجاج أبو عيال معدم محتاج

طاوي المطيّ مع ضيق العيش فأنبت الله لديك ريشي

شرفتني منك بألف حاضره شرّفك الله بها في الآخره

وكسوة ظاهرة حسان كساك ربي حلل الجنان

قال : فضحك الأمير وقال : من زعم أن هذا مجنون ؟ وددت أني كنت مثله .

وساق للأصمعي حادثة أخرى حكاها عن أبي الشريك المجنون. قال : بينا أنا ذات يوم عند والي البصرة إذ قيل : مجنون بالباب يتكلم بالشعر. فقال : أدخلوه، فدخل. فإذا هو رجل كأنه نخلة سحوق، نتن الأطراف، موسوس، فسلّم على الأمير، فردّ عليه السلام وقال : من أنت ؟ فقال :

إني أنا أبو الشريك الشاعر من سأل عني فأنا ابن الفاغر

فقال الوالي : ما أمدحك لنفسك ! فقال :

لأنني أرتجل ارتجالا ما شئت يا من ألبس الجمالا

قال الأصمعي : فقال لي الأمير : ما هذا بمجنون فألق عليه ما عندك. فقلت له : ما الرَّيْم ؟ فقال :

الريم[1] فضل اللحم للجزار يتحفه للفتية الأيسار[2]

---

(١) عظم يفضل فيعطاه الجزار .

(٢) جمع «يسر» وهم القوم المجتمعون على لعب اليسر أي القمار .

فقلت : ما الحلوان ؟ فقال :

أليس ما يعطى على الكهانه والحرّ لا يقنـع بالمهانـه

فقلت : ما الدكاع ؟ فقال :

إن الدكاع هو سعال الماشيه والله لا تخفى عليه خافيه

قلت : فما التولة ؟ فقال :

عوذة عنق الطفل عندي توله وقد تسمى العنكبوت تولـه

قلت : فما الرُّفة ؟ فقال :

الرُّفة التبن فسل ما شيتا لقد وجدت عالماً خرّيتا

قال الأصمعي : فاستحييت من كثرة ما سألته. فقال : قل لي :

ما الهلـقس والسحساح والحمـل الـراوح لا يراح

قلت : الهلقس : الطمع للحريص، والسحساح : الذي لا يستقر في موضع: والراوح : المهزول، فقال :

ما أنت إلا حافظ للعلـم أحسنت ما قلت بغير فهم

فقال الوالي : فحبذا كل مجنون مثل هذا. ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، فلما قدم إليه المال قال :

أكل هذا هو لي بمرّه تمّ سروري واعترتني مسرّه

ثم أقبل على الأمير فقال :

رِشت جناحي يا أخا قريش أقررت عيني وأطبت عيشي

ورأى إبراهيم بن أدهم ريحانة، وهي جارية سوداء، قد أثر البكاء في خدّيها خطاً، فذاكرها شيئاً من أمر الآخرة فأنشأت تقول :

صبرت عن اللذات حتى تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطعمت نامت وإلا تسلت

ولها أيضاً :

وما عاشق الدنيا بناج من الردى ولا خارج منها بغير غليل

فكم ملك قد صفّر الموت بيته وأخرج من ظلٍّ عليه ظليل

ومما أنشدته :

تعــوّدْ سهــر الليـــل فإن النـــوم خســـران

ولا تركــن إلى الـــذنب فإن الـــــذنب نـيران

فكـــن للوحـــي درّاساً وللقــــراء أخــــدان

إذا ما الليـــل فاجاهــم فهــم في الليـل رهبـــان

يميلـــون كمــــا مال من الأريــاح أغصـــان

وقال إبراهيم بن أدهم ـرحمه الله ـ : ذُكرت آسية لعبدالله بن طاهر، فدعي بها، فأدخلت عليه، فلزمت الصمت خمسة أيام. فقال لها عبدالله : أخرساء أنتِ، مالك لا تنطقين ؟ قالت : ولكنني أقول :

قالوا نراك طويل الصمت قلت لهم ماطول صمتي من عيٍّ ومن خَرَس

الصمت أحمد في الحالين عاقبة عندي وأحسن بي من منطق شكس

قالوا وأنت مصيب لست ذا خطأ فقلت هاتوا أروني وجه معتبس

أأنشر البرّ فيمن ليس يعرفه أم أنثر الدرّ بين العمي في الغلس

وقال محمد بن يعقوب الأزدي عن أبيه : دخلت دير هرقل فوجدت فيه مجنوناً مكبلًا، فكلمته فوجدته أديباً، فقلت : ما الذي غيّرك إلى ما أرى ؟ فقال :

نظرت إليها فاستحلت بنظرة دمي ودمي غال فأرخصه الحب

وغاليت في حبي لها ورأت دمي رخيصاً فمن هذين داخلها العجب

وقال الجاحظ :

رأيت مجنوناً بالكوفة فقال لي : من أنت ؟ قلت : عمرو بن بحر الجاحظ. قال : يزعم أهل البصرة أنك أعلمهم. قلت : إن ذلك ليقال، قال : من أشعر الناس ؟ قلت : امرؤ القيس. قال : حيث يقول ماذا ؟ قلت :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

قال : فأنا أشعر منه، قلت : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

كأن وراء الستر فوق فراشها قناديل زيت من ورام قرام

فأينا أشعر ؟ قلت : أنت، قال : فأيهما أقوى الريح أم الماء ؟ قلت : الريح، قال : لم تصب، قلت : وكيف؟ قال : يقع الثوب في الماء فيبتل في طرفة عين، ويبسط في الريح فلا يجف إلا بعد ساعات، أصبتُ أم أخطأت ؟ فقلت : أصبت .

وقال ثمامة بن أشرس : دخلت دير هرقل فرأيت فيه شاباً مشدوداً إلى سارية، فقال لي : ما اسمك ؟ قلت : ثمامة، قال : المتكلم ؟ قلت : نعم، قال : يا ثمامة هل للنوم لذة ؟ قلت : نعم، قال : متى يجدها صاحبها ؟ قال : إن قلتُ قبل النوم أجلت، وإن قلت مع النوم أخطأت، لأنه ذاهب العقل، وإن قلت بعد النوم أخطأت لأنه قد انقضى، قلت : وماذا تقول أنت ؟ قال : إن النعاس داء يحلُّ بالبدن ودواؤه النوم .

قال أبو غسان الإسماعيلي :

دخلت البصرة فرأيت شيخاً مجنوناً قد غُلَّت يداه، وأحدث به النالس، فرحمته وأزحت الناس عنه، فتنفس الصعداء، واستعبر، ثم قال :

لقد صبرت على المكروه أسمعه من معشر فيك لولا أنت مانطقوا
وفيك داريت أقواماً أجاملهم ولولاك ما كنت أدري أنهم خُلقوا
الحمد لله حمداً لا شريك له كأنني بدعة من بين من عشقوا

* * *

المراح في المزاح

لبدر الدين الغزي (*)

قال المؤلف :

قد ورد في ذم المزاح ومدحه أخبار، فحمّلنا ما ورد في ذمّه على ما إذا وصل إلى حدّ المثابرة والإكثار . فإنه إزاحةٌ عن الحقوق، ومخرج إلى القطيعة والعقوق . يَصِمُ المازح، ويضيم الممازح... وربما كان للعداوة والتباغض سبباً... فحقُّ العاقل يتّقيه، وينزّه نفسه عن وصمة مساويه .

....

عن يوسف بن محمد الصُّهيبي عن أبيه قال : قدم صهيب من مكة، فنزل على النبي ﷺ وهو يشتكي عينيه، وهو يأكل تمراً، فقال : أيا صهيب تأكُلُ التمر على علّة عينيك ؟ فقال : إنما آكل من الشق الصحيح[1] .

فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه .

وإنما استجاز صهيب أن يعرض لرسول الله ﷺ بالمزح في جوابه، لأن استخباره قد كان يتضمن المزح .

وعن النعمان بن بشير قال : استأذن أبو بكر –رضي الله عنه– على النبي ﷺ فسمع صوت عائشة عالياً . فلما دخل تناولها ليَلْطِمها وقال : لا أراك ترفعين .

(*) المراح في المزاح . بدر الدين أبو البركات محمد الغزي ؛ تعليق أحمد عبيد .ـ ط ٢ .ـ الطائف : مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، ضمن مجموع (في الملح واللطائف) سلسلة مجموعة الرسائل الكمالية – ١٢ ص ص ٢٩٩ – ٣٥٦ .

وقد اعتمدنا في تخريج ما ورد على ما ذكره المحقق .

كما وردت ترجمة المؤلف أثناء عرض كتابه (آداب المؤاكلة) .

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : رواه ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب، ورجاله ثقات .

صوتك على رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يحجزه . وخرج أبو بكر مغضباً . فقال النبي ﷺ [أي لعائشة] حين خرج أبو بكر : كيف رأيتني أنقذتكِ من الرجل ؟ قال : فمكث أبو بكر أياماً ثم استأذن فوجدهما قد اصطلحا ، فقال لهما : أدخلاني في سِلْمكما كما أدخلتماني في حربكما . فقال النبي ﷺ : قد فعلنا [١] .

وعن زينب بنت أبي سلمة قالت : دخلتُ على النبي ﷺ وهو يغتسل ، فأخذ حفنة من ماء فضرب بها وجهها وقال : يالكاع [٢] .

وأورد المحقق في الهامش أنه ﷺ مجّ مجّة من دلو في وجه محمود بن الربيع وهو ابن خمس سنين يمازحه [٣] .

وعن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب قال : قالت عائشة : كان عندي رسول الله ﷺ وسودة ، فصنعت خزيراً [٤] ، فجئت به فقلت لسودة : كلي ، فقالت : لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلين أو لألطّخنَّ وجهكِ ، فقالت : ما أنا بباغية . فأخذت شيئاً من الصحفة فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ ما بيني وبينها ، فخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستقيد مني ، فتناولتْ من الصحفة شيئاً فمسحتْ به وجهي ، وجعل رسول الله ﷺ يضحك [٥] ..

ونظر عمر بن الخطاب إلى أعرابي يصلي صلاة خفيفة، فلما قضاها قال : اللهمّ زوّجني بالحور العين . فقال عمر : أسأت النقد وأعظمت الخِطبَة [٦] .

---

(١) قال في المشكاة : رواه أبو داود .

(٢) ذكرت هذه القصة بألفاظ أخرى في الإصابة والاستيعاب والمواهب اللدنية وأسد الغابة .

(٣) رواه الشيخان وغيرهما .

(٤) لحم يقطع ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذرّ عليه الدقيق .

(٥) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : رواه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح وأبو يعلى بإسناد جيد . وقال القسطلاني في المواهب : رواه ابن غيلان من حديث الهاشمي وأخرجه الملاء في سيرته

(٦) أسأت النقد : كناية عن قلة المهر .

وعن أبي بكرة : أن أعرابياً وقف على عمر بن الخطاب فقال :

يا عُمرَ الخير جُزِيتَ الجنّهْ أُكسُ بُنيَّاتِي وأُمَّهنّهْ
وكن لنا من الزمان جُنّهْ أُقسم بالله لتفعلنّهْ

فقال عمر : وإن لم أفعل أكون ماذا ؟ فقال :

إذاً أبا حفص لأمضينّهْ

قال : فإن قضيت يكون ماذا ؟ فقال :

والله عنهنّ لتُسأَلُنّهْ يوم تكون الأعطياتُ مِنّهْ
وموقف المسؤول بينهنّهْ إما إلى نار وإما إلى جنّهْ

فبكى عمر حتى اخضلّت لحيته ثم قال لغلامه : يا غلام : أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره ، ثم قال : والله لا أملك غيره .

وعن نافع مولى عبد الله بن عمر قال : كان عبد الله بن عمر يمازح مولاةً له فيقول لها : خلقني خالق الكرام، وخلقكِ خالق اللئام . فتغضب وتصيح وتبكي، ويضحك عبد الله بن عمر .

وعن عبد الله بن كثير قال :

اقتتل غلمانُ عبد الله بن عباس وغلمانُ عائشة ، فأُخبِرَتْ عائشة بذلك، فخرجت في هودج لها على بغلة لها، فلقيها ابن أبي عتيق فقال لها : يا أمي جعلني الله فداك أين تريدين ؟ قالت : بلغني أن غلماني وغلمان ابن عباس اقْتتلوا فركبت لأُصلح بينهم ، فقال : يعتق ما يملك إن لم ترجعي. فقالت : ما حملكَ على هذا الكلام ؟ قال : ما انقضى عنا يوم الجمل حتى تريدين أن تأتينا بيوم البغلة ؟!

وعن عبد الله بن سرجس قال : أتى الضحاكُ بن سفيان الكلابي إلى رسول الله ﷺ قبل بيعته ثم قال : عندي امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوَّجها ؟ وعائشة جالسة تسمع قبل أن يُضرَب الحجاب ، فقالت : أهي أحسن أم أنت ؟ قال : بل أنا أحسن منها وأكرم . وكان امرءاً دميماً قبيحاً.

قال : فضحك النبي ﷺ من مسألة عائشة إياه[1] .

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال :

أتيتُ النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قُبّة من أدم، فسلّمتُ فردَّ علي وقال : ادخل. فقلت : أكُلّي يارسول الله ؟ قال : كلُّك. فدخلتُ. قيل : إنما قال أدخلُ كلّي من صِغَر القبة[2] .

وعن عبدالله بن رواحة أنه كان له جارية ، فاتهمته امرأته أن يكون أصابها فقالت : إنكَ الآن جُنُبٌ منها . فأنكر ذلك، فقالت : فإن كنت صادقاً فاقرأ القرآن ؛ وقد عَهِدَتْهُ لا يقرأ القرآن وهو جنب ، فقال :

شهدت بأن دين الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش ربُّ العالمينا

وتحمله ثمانيةٌ شداد ... ملائكة الإله مسوَّمينا

.... ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره فضحك حتى بدت نواجذه .

وعن عمرو بن دينار عن ابن أبي عتيق أنه مرّ به رجل ومعه كلب فقال للرجل : ما اسمك ؟ قال : وثّاب، قال : فما اسم كلبك ؟ قال : عمرو، فقال : واخلافاه .

وروى الشعبي في حديث النبي ﷺ : « تسحّروا ولو بأن يضع أحدكم إصبعه على التراب ثم يضعها في فيه »[3] فقال رجل : أي الأصابع ؟ فتناول الشعبيّ إبهام رجله وقال : هذه !

وقال له رجل : ما اسم امرأة إبليس ؟ فقال : ذاك نكاح ماشهدناه .

---

(١) ورد بروايات متعددة...

(٢) رواه أبو داود .

(٣) قال المحقق : لم أقف على هذا الحديث إلا في أخبار الظراف والمتماجنين للحافظ ابن الجوزي .

ومما أورده المحقق في الهامش عن الشعبي أنه قيل له : هل تمرض الروح ؟ قال : نعم من ظل الثقلاء. قال بعض أصحابه : فمررت به يوماً وهو بين ثقيلين فقلت : كيف الروح ؟ قال : في النزع .

وقال ابن عياش : رأيت على الأعمش فروة مقلوبة صوفها إلى خارج، فأصابنا مطر، فمررنا على كلب، فتنحّى الأعمش وقال : لا يحسبنا شاة .

ووقع بين الأعمش وامرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه، ويقال إنه أبو حنيفة، أن يُصلح بينهما، فقال لزوجته : هذا سيدنا وشيخنا أبو محمد، فلا يزهدنّكِ فيه عمَشُ عينيه، وحُموشة ساقيه، وضعف ركبتيه، وقزل رجليه[1] . وجعل يصف. فقال الأعمش : قم عنا قبّحك الله فقد ذكرت لها من عيوبي ما لم تكن تعرفه .

وجاء رجل إلى أبي حنيفة فقال له : إذا نزعتُ ثيابي ودخلت النهر أغتسل فإلى القبلة أتوجّه أم إلى غيرها ؟ فقال له : الأفضل أن يكون وجهك إلى جهة ثيابك لئلا تُسرق .

ونكتفي بما اقتطفناه من هذا الكتاب الممتع، لنصل إلى ما قاله المؤلف في أواخر صفحات الكتاب.. من إرشادات وإيضاحات تتصل بالموضوع..

قال :

العاقل يربأ بنفسه عن سفساف الأمور، وعن مخالطة السفلة ومزاحهم مطلقاً، وكذلك عن مزاح من هو أكبر منه لما ذكرنا من الحقد وخرق الحرمة، ولا بأس به بين الإخوان بما لا أذى فيه ولا ضرر ولا غيبة ولا شَين في عِرض أو دِين، قاصداً به حسن العشرة والتواضع للإخوان والانبساط معهم ودفع الحشمة منهم من غير استهتار أو إخلال بمروءة أو نحوه أو استنقاص بأحد منهم...

وأما مزاح الرجل مع أهله وملاطفتهم بأنواع الملاطفة فمن شعار المرسلين وأخلاق النبيين، وهو من المعاشرة بالمعروف...

---

(١) حموشة الساق دقتها ، والقزل أسوأ العرج .

وقال عمر رضي الله عنه : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التُمس ماعنده وجد رجلًا .

ونُقل نحوه عن لقمان بلفظ : ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي، فإذا كان في القوم وُجد رجلًا .

ووصفت أعرابية زوجها بعد موته فقالت : لقد كان والله ضحوكاً إذا وَلَج، سكوتاً إذا خرج، آكلًا ماوجد، غير سائل إذا فَقَد .

وقال الإمام الغزالي :

ينبغي أن لا ينبسط في الدُّعابة وحسن الخُلق والموافقة باتباع هواهن إلى حدٍّ يفسد خلقهن ويسقط هيبته بالكلية، بل يراعي الاعتدال في ذلك، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألبتة . بل مهما رأى مايخالف الشرع والمروءة تنمّر وامتنع...

وورد في آخر الكتاب أن نساء العرب كنّ يعلّمن بناتِهنّ اختبار الأزواج، تقول المرأة لابنتها : اختبري زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه، وانزعي زُجَّ[١] رمحه، فإن سكت على ذلك فقطّعي العظام بسيفه، فإن صبر فاجعلي الإكاف[٢] على ظهره، فامتطيه فإنما هو حمارك .

---

(١) الزج : الحديدة التي تركب في أسفل الرمح .

(٢) الإكاف : البرذعة، وهي مايجعل على ظهر الدابة للجلوس عليه .

التبري من معرة المعري

للسيوطي (*)

قال السيوطي :

دخل يوماً أبو العلاء المعري على الشريف المرتضى، فعثر برجل، فقال الرجل : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

قال السيوطي : وقد تتبعت كتب اللغة، فحصّلتها ونظمتها في أرجوزة، وسميتها «التبرّي من معرّة المعري» وهي هذه :

لله حمد دائم الوَلِيِّ[1]	ثم صلاته على النبيِّ
قد نقل الثقات عن أبي العلا	لمّا أتى للمرتضى ودخلا
قال له شخص به قد عثرا	من ذلك الكلب الذي ماأبصرا
فقال في جوابه قولًا جلي	معَيِّراً لذلك المجهل
الكلب من لم يدر من أسمائه	سبعين، مومياً إلى علائه
وقد تتبّعتُ دواوين اللغهْ	لعلني أجمع من ذا مبلغهْ
فجئت منها عدداً كثيراً	وأرتجي فيما بقي تيسيرا
وقد نظمت ذاك في هذا الرَّجَزْ	ليستفيدها الذي عنها عَجَزْ

(*) التبري من معرة المعري أرجوزة ذكر فيها السيوطي أسماء الكلب، وذكر في أولها ما حمله على تأليفها ، وقد اعتمد فيها المحقق على مخطوطتين وأحسن في تحقيقها ، وهي من أبواب كتاب « تعريف القدماء بأبي العلاء» جمع وتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، بإشراف طه حسين ، نشرها مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٤٠٦هـ ، ٦٩٥ ص .

ويلاحظ القارئ من مقدمة الكتاب أو الأرجوزة أن السيوطي ساق فيها أسماء الكلب ليبرئ نفسه من قول المعري : « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً » أي حتى لا يلحقه هذا السب !! وقد اعتمدت في شرح كلمات الأرجوزة على ما ذكره المحقق باختصار، دون ذكر عناوين المراجع ، فلتراجع هناك .

(١) المراد به هنا الدوام والتتابع .

فسمِّـه - هُديتَ - بالتبـرِّي يا صاح من معرّة المعرّي

من ذلك : الباقع ثم الوازع والكـلب والأبقـع ثم الـزارع[1]

والخَيْطَـلُ السُّخـام ثم الأسد والعُرْبُـج العجـوز ثم الأعقـد[2]

والأعنـق الدِّرباس والعَمَــلِّسُ والقُطْرب الفُـرني ثم الفَلْـحَسُ[3]

والثَّغـم الطَّلْــق مع العــوّاء بالمدِّ والــقصر على استــواء[4]

وعُـدَّ من أسمائــه الــبصير وفيــه لغــز قالــــه خبير[5]

والعرب قد سمَّوه قِدْماً في النفير داعي الضمير ثم هانئ الضمير[6]

---

(١) البقع في الطير والكلاب بمنزلة البلق في الدواب . والباقع : الضبع، وقيل الغراب، وقيل كلب أبقع .

والوازع : الكلب، لأنه يزع الذئب عن الغنم أي يكفه .

والأبقع من البقع، وهو بياض في صدر الكلب الأسود .

(٢) الخيطل : الكلب والسنور .

السُّخام : ورد عند الجوهري «سحام» بالحاء المهملة .

العُرْبُج : كلب الصيد، الكلب الضخم..

العجوز : الأرنب، والأسد، والبقر، والثور، والذئبة، والرخم، والرمكة، والضبع، وعانة الوحش، والعقرب، والفرس، والكلب .

الأعقد، سمي بذلك لالتواء ذنبه .

(٣) الأعنق : الكلب في عنقه بياض، الدرباس : الأسد والكلب العقور، العملس : الذئب الخبيث والكلب الخبيث، القطرب : دويبة يزعمون أن ليس لها قرار ألبتة، والذكر من السعالي، والصغير من الكلاب، الفرني : الرجل الغليظ والكلب الضخم، الفلحس : الدب المسن والكلب .

(٤) الثغم : الضاري من الكلاب، الطلق : كلب الصيد .

(٥) سمّي بصيراً لأنه من أحدّ العيون بصراً، واللغز يشير به ـ كما قال المحقق ـ إلى ما قاله ابن الحريري في المقامة الثانية والثلاثين (الطيبية) وهو : « قال : أيستباح ماء الضرير، قال : نعم، ويجتنب ماء البصير » وقد فسّره ابن الحريري بقوله : «الضرير : حرف الوادي، والبصير : الكلب » .

(٦) الضمير : يراد به هنا الضيف الغريب، والهانئ : المطعِم، فهو حيث دلّ الضيف على موضع القرى فكأنه أطعمه..

وهكذا سمّوه داعي الكرم مشيِّد الذكر متمِّم النِّعم
وثَمْثَمٌ وكالب وهِبْلَعُ ومنذرٌ وهَجْرَع وهِجْرع[1]
ثم كُسَيْبٌ عَلَم المذكَّر منه من الهمزة واللام عَرِي[2]
والقَلَطيُّ والسَّلوقي نِسْبَةْ كذلك الصِّيني بذاك أشبَهْ[3]
والمستطير هائج الكلاب كذا رماه صاحب العُباب[4]
والدِّرصُ والجرو مثلث الفا لولد الكلب أسامٍ تُلْغَى[5]
والسِّمْع فيما قاله الصُّوليُّ وهو أبو خالدٍ المكنيُّ
ونقلوا الزُّهدون للكلاب وكلبةٌ قيل لها كَساب[6]
مثل قَطامِ عَلَماً مَبْنِيّا وكَسْبَةٌ كذاك نقلاً رُويا[7]
وخُذْ لها العَوْلَق والمُعاوِيَةْ ولَعْوة وكن لذاك راوية[8]
وولد الكلب من الذِّيبة سمّْ عُسْبُورة وإن تُزِل ها لم تُلَمْ[9]
وألحقوا بذلك الخَيْهَفْعَى وإن تمدَّ فهو جاء سَمْعا[10]

---

(١) ثمثم : كلب الصيد، الكالب : اسم لجماعة الكلاب، ولعلها «كاسب»، والكواسب : الجوارح، الهبلع : الكلب السلوقي، هجرع : الكلب السلوقي الخفيف .

(٢) كُسيب : عَلَم لذكور الكلاب .

(٣) القلطي : القصير جداً من الناس ووالسنانير والكلاب، السلوقي : الكلب منسوب إلى سلوق، قرية باليمن، وقيل مدينة اللان. الصيني : الكلاب القصيرة القوائم .

(٤) المستطير : الهائج من الكلاب ومن الإبل .

(٥) الدرص : ولد الفأر واليربوع والقنفد والأرنب والهرّةوالكلبة ونحوها، الجرو : ولد الكلب والأسد، وصغير كل شيء .

(٦) ذكر المحقق أن بعض هذه الأسماء لم تنصُّ عليها المعاجم . ولم أشر إلى ذلك .

(٧) كسبة : من أسماء إناث الكلاب .

(٨) العولق : الكلبة الحريصة، المعاوية : الكلبة المستحرمة تعوي إلى الكلاب إذا صرفت ويعوين، اللعوة : الكلبة الحريصة التي تقاتل على ما يؤكل .

(٩) العسبور والعسبورة : ولد الكلب من الذئبة .

(١٠) الخيهفعى : ولد الكلب من الذئبة .

وولد الكلبة من ذيب سُمي　　أو ثعلبٍ فيما رَوَوْا بالدَّيْسَم

ثم كلاب المـاء بالهَـرَاكِلَـهْ　　تُدعى وقس فرداً على ما شاكله[1]

كذاك كلبُ الماء يُدعى القُنْدُسا　　فيما له ابن دَحيةٍ قد ائتسى[2]

وكلبــة الماء هي القُضاعــهْ　　جميع ذاك أثبتــوا سماعــه

وعَدُّوا من جنسه ابن آوى　　ومن سِـمُـاه دَأَلٌ قد ساوى[3]

ودُئِــلٌ ودُؤَل والــذُّأْلان　　وافتح وضُمّ مُعجِماً للذُّألان[4]

كذلك العِلَّوضُ ثم النَّوفَـل　　واللَّعْوَضُ السُّرحوب فيما نقلوا[5]

والوعُّ والعِلَّوش ثم الوعـوع　　والشَّغْبَر الـوأواء فيها يُسْمَع[6]

هذا الذي من كتبٍ جمعتُه　　وما بدا من بعد ذا ألحقتُه

والحمــد لله هنــا تمام　　ثم على نبيِّــه الســلام

---

(١) الهراكله : ضخام السمك، أو كلاب الماء، أو جماله .

(٢) القندس : كلب الماء .

(٣) دأل : فسّره في القاموس بأنه ابن آوى والذئب ودويبة كابن عرس .

(٤) الدئل والدؤل : ابن آوى .

(٥) العلوض : ابن آوى بلغة حمير. وبالصاد المهملة : الذئب، النوفل : البحر، والعطية، وبعض أولاد السباع، وذكر الضباع، وابن آوى. واللعوض : ابن آوى، وهي لغة يمانية. السرحوب : ابن آوى .

(٦) الوع : ابن آوى والثعلب. العلوش : ابن آوى والذئب، الوعوع : ابن آوى، الشغبر : ابن آوى، الوأواء : في القاموس : صياح ابن آوى، وفي اللسان : الواوا : صياح العلوص، وهو ابن آوى، إذا جاع .

ومما استدركه المحقق على السيوطي من أسماء الكلاب : الخنطل، والدرواس .

المختار في كشف الأسرار
للجوبري (*)

هذا الكتاب غريب في بابه عجيب في محتوياته، فهو يكشف أسرار مهن كثيرة اعتاد الناس أن يقفوا أمامها مدهوشين.. لا يعرفون سرّ أصحابها وسرّ ما يعملون.. ويصل الأمر ببعضهم لأن يستسلموا لمثل هذه الأمور ويخضعوا لأصحابها ويذلوا لهم.. بل ويتبعوا سبلهم بعد التغرير بهم وسدّ ملكة التفكير والإبداع عندهم !!

وقد كشف المؤلف هنا ثلاثين سرًّا لمهن مختلفة.. بعضها مستعمل حتى الآن.. وهي : كشف أسرار الذين يدّعون النبوة..، كشف أسرار الذين يدّعون المشيخة،..أسرار كذبة الوعاظ،.. كذبة الرهبان..، كذبة أحبار اليهود..، أسرار بني ساسان،.. الذين يمشون بالنملة السليمانية،.. أهل الحراب وآلة السلاح،.. أهل الكاف (الكيمياء)،.. العطارين، أصحاب الميم : وهم المطالبية الذين يدّعون

(*) المختار في كشف الأسرار . عبدالرحيم بن عمر الدمشقي المعروف بالجوبري – [دون بيانات نشر] ، ١٦١ ص . ويبدو أنه طبع قبل حوالي قرن من الزمان.. أو أقل .

وقد حصل خطأ في كتابة اسمه، فبالرجوع إلى ثلاثة مصادر تبيّن أنه عبد الرحمن . انظر الأعلام للزركلي جـ ٣ ص ٣١٩ ومعجم المؤلفين لكحالة جـ ٥ ص ١٦ ومعجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس جـ ١ ص ٧١٩ .

كان موجوداً في أيام السلطان الأعظم الملك المسعود من ملوك بني أرتق، فحضر ذات يوم مجلسه (في حدود سنة ٦١٨هـ) وقد ذكر في المجلس كتاب ابن شهيد وما كشف فيه من ذكر أرباب الصنائع والعلوم، فسأله السلطان أن يصنّف له كتاباً يحذو فيه حذوه، فوضع كتابه هذا .

وهو زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر عمر الدمشقي الحراني الجوبري. فاضل متفنن شافعي، نسبة إلى جوبر من ضواحي دمشق . له كتب منها : «المختار في كشف الأسرار، وهتك الأسرار» و«كشف أسرار المحتالين ونواميس الخيالين» و«الصراط المستقيم في علم الروحانية وصناعة التنجيم» وكتاب آخر في علم الرمل . وقد رحل إلى الديار المصرية وكان مقيماً بها سنة ٦٢٦هـ .

الوصول إلى المطالب، أصحاب السير وهم المنجمون، الذين يتكلمون على الرمل، المعزّمين، أطباء الطريق، الذين يقطعون الشرناق من العين، الذين يقلعون الدود من الضرس، الذين يصبغون الخيل، الذين يصبغون بني آدم، الذين يلعبون بالنار، الذين يعملون الطعام، الذين يمشون بالعلقات، الكتّاب، المشعبذين، الجوهريين، الصيارف، الذين يدبون على المردان، أصحاب الصنائع، أصحاب المهالك، النساء .

والمؤلف – الذي يبدو أنه لم يسلم من استعمال بعض هذه المهن – يذكر في المقدمة أنه قرأ كتباً كثيرة، في الفلسفة والفلك و«فنون النواميس» والحيل والرمل والتنجيم.. الخ . وأن «السلطان» أحضر كتاب «ابن شهيد» وفيه ذكر أرباب الصنائع وكشف علومهم.. فطالعه المؤلف وتعجب من ذلك.. ثم طلب منه أن يصنف كتاباً يحذو فيه حذوه ويسلك فيه طريقه، ويكون أدقّ مسلكاً وأوضح معاني.. فوضع هذا الكتاب .

وعندما يغوص المؤلف في كشف هذه الأسرار ويرى أنه أتى بأشياء لا يكاد يقدر عليها غيره، أو أنه يرى نفسه مضطراً لكشف أسرار ولو كانت مخلّة بالآداب.. يذكر أن السبب في ذلك ليعلم أنه يعرف أسرار كل المهن !

قال في ص (٧٤) من فصل كشف أسرار العطارين :

«... وكل ذلك نذكره باباً باباً ليعلم كل من يقف على كتابي هذا أني لم أترك شيئاً من العلوم ولا من الصنائع إلا وقد بينته وبرهنت عليه وسلكت طريق أهله وانتظمت في كل مسلك..» .

وبعد أن ذكر مالا يحسن ذكره عن المردان قال في ص (١٣٩) :

«... وإنما ذكرت ذلك ليعلم من يقف على كتابي أني لم أترك شيئاً ولم يفتني شيء ، فافهم ذلك..» .

وهذا غرور منه – غفر الله له .

* * *

وعندما يتحدث عن أسرار أدعياء النبوة والأعمال الخفية التي كانوا يقومون بها.. وخلطهم لمواد بعضها ببعض.. وتبييتهم أموراً لا يطلع عليها إلا الخواص من أتباعهم – وذلك من باب إظهار «خوارق» كما أتى الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – بالمعجزات.. نجد أن بضاعتهم رخيصة.. لا ينخدع بها إلا رقيق العقيدة أو عديمها.. ولا يتبعهم إلا من وافقت نزعاته ما يدعو إليه المدّعي الكذاب.. من حب للسلطة، أو طلب للشهرة، أو للمال، أو غاية معينة يهدف من ورائها تشويه العقائد وبث الخلاف بين الناس.. لتفريق كلمتهم، للوصول إلى تلك الغاية التي خطط لها، أو طُلب منه تنفيذها !

وممن كشف أسرارهم هنا : مسيلمة الكذاب، إسحق الأخرس، ابن سعيد اللجياني القرمطي، فارس بن يحيى الساباطي؛ وأخيراً عبدالله بن ميمون الذي استطاع أن يغرّر بعقول البعض ويدّعي أنه قد جرى له انشقاق القمر ! وسرّ ذلك في خلطه لموادّ وحرقها وصعودها على هيئة دخان عظيم.. مما خيّل للناس أن القمر قد انشق !

وكنت أشرت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب إلى عزمي لإصدار كتاب عن أدعياء النبوة في العصر الحديث.. ولكن لم أرَ عزيمة في الأمر.

وقد بحث المؤلف هذه الأمور في ثلاثة عشر باباً.. فهو من أطول فصول الكتاب !

وأما عن أسرار الذين يدّعون المشيخة، فيقسمهم أولًا إلى درجات، ولا يقصد العلماء العاملين وأرباب العلم والفضل، بل قصده «أصحاب الدخن المختلفة والتباخير الهيولى» . واعلم أن هذه الدرجة لم يتعلق بها إلا كل من يأكل الدنيا بالدين، ويدخل الشبهة على قلوب المسلمين.. واعلم أن كل واحد من أهل هذه الطائفة ظاهره صديق وباطنه زنديق ، يستحلون المحارم ويجهلون المعالم، فمنهم المباحية الذين يبيحون مؤاخاة النساء واللعب مع المردان .ويبيحون السماعات ويخلون بالنسوان...

ثم أخذ يعدد أصنافاً أخرى متعددة من أمثال هؤلاء المشعوذين.. وبعض ما يقومون به من أعمال ليُروا الناس أنها كرامات لهم.. من مثل التنور المسجور الذي يدخل فيه المشعوذ ويخرج بعد ساعة دون أن يصيبه شيء.. بينما يكون قد عالج أسفله أو جانباً منه بباب إلى غرفة تكون باردة.. كما يتعهّد جسمه ببعض الدهون.. وذكر طرقاً أخرى..

كما كشف أسرار من يشعل أصابعه كأنها شموع.. ويخرج من بين أصابعه ماء – بعد أن يعطش أصحابه – ويكون قد أعدّ لذلك مصران غنم معالج بطريقة معينة، يمدّه إلى ذراعه فكتفه.. الخ وإحضار فواكه في غير ميعادها.. وأكل الحيات والنار، والصبر على الجوع أياماً ..

قال المؤلف : « واعلم –وفقك الله– أن أهل هذه الدرجة من المشايخ مجمعون على بطلان معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكرامات الصالحين، ويعتقدون أن كل ما جاءت به الأنبياء من المعجزات والصالحون من الكرامات مثل هذا النوع الذي قد سلكوه، وهم كاذبون مارقون من الدين. وكيف يقاس الحق بالباطل ؟ ثم إن أهل هذه الدرجة مجمعون على أكل الحشيشة واستباحة الحريم والفسق... ولهم في ذلك فنون..» .

وعندما أورد بعض ما يفعلونه من عجائب قال :

« وكل ذلك حيلة على أموال الناس... والدليل أن أحدهم لا يمكن أن يبقى يوماً واحداً بلا أكل الحشيش، فإذا أكله اختلط عقله وسوّلت له نفسه كل قبيح، والحشيش من أعظم المسكرات..» .

وقال عن كذبة الرهبان إنهم أعظم الأمم كذباً ونفاقاً ودهاء ، وذلك أنهم يلعبون بعقول النصارى ويستبيحون النساء وينزلون عليهم الباروك ولا يعلم أحد أحوالهم، وهم أضرّ الخلق، وأحسن من غيرهم، لأنهم إذا خلوا بأنفسهم يعترفون بأنهم على الضلالة وقد غيّروا الأحوال والأفعال والأقوال، ولهم أعمال عظيمة لا تعدّ ولا تحصى، وهم يأكلون الأموال بالباطل ويرتبون الكذب وزخارف القول، وهم أكذب الخلق على كل حال ..

وقال عن كذبة أحبار اليهود :

اعلم أن هذه الطائفة أمكر الخليقة وأخبثهم وأشدهم كفراً ونفاقاً، وهم أشدّ الناس خبثاً في أفعالهم وأظهرهم ذلة ومسكنة، وهذا عين اللعنة والدهاء، فإنهم إذا خلوا بإنسان أهلكوه ودكّوا عليه المرقد من الطعام ثم إنهم يقتلونه !

وإذا سألت عن بني ساسان من هم أجابك المؤلف أنهم طائفة يدخل فيها جميع الطوائف ويتعلق بها أكثر الناس، وذلك لأنها صناعة واسعة تحتمل أموراً شتى، وهم أصحاب الدهاء والمكر والحيل ولهم جسارة على كل ما يفعلونه، ولهم ألف باب من الأبواب.. منهم الفقراء والمدرعون وأصحاب القرود والدبب والذين يؤلفون بين القط والفار، والذين يدعون أنهم كانوا مأسورين، والذين يظهرون الاستسقاء (داء البطن) .

وحكى هنا قصصاً عجيبة.. منها قصة رجل يدّعي الفقر وهو من الأغنياء.. فقد أحضر يوم الجمعة -بعد انتهاء الخطبة- ذهباً كثيراً ووضعه بين يدي الخطيب، وقال إنه رآه مرمياً في الشارع، ليبحث عن صاحبه ويعطيه له.. ثم قال إنه مسكين - وعليه ثياب مقطّعة . فبيّن الخطيب أن مثل هذا المسكين «الأمين» يستحق كل معروف !

وانهالت عليه الصدقات..

وبعد لأي ! حضرت امرأة على هيئة عجوز تدّعي أنها ضيّعت ذهباً صفته كذا وكذا -على هيئة ذلك الذهب- فأُعطيته !

وكانت خطة مرسومة !

وفي الفصل الثامن عن أسرار أهل الحراب وآلة الحرب، يذكر بعض المواد الكيميائية التي تهري اللحم ولا يبرأ الجرح إذا دخلتْ فيه.. وقد وصف المؤلف هذا التفاعل الكيميائي بقوله «... ورق الدخلة والباذروج أجزاء متساوية يدقونها ويجعلونها في الماء ثم يجعل فيه شحم الحنظل ثم يغلى عليه حتى يذهب ربعه ثم يحمى الحديد من أي نوع كان من آلة الحرب سقياً ودهناً، فإنه يفري جميع ما يمر عليه ويعظم ضربه ولا يبرأ جرحه أبداً..» .

أما عن العطارين فقال : إنهم أكبر دكاً وزغلًا من جميع الصنائع، ففيها ما هو معمول معلوم، وفيها ما هو معمول مجهول.. ثم تحدث عن أسرار صناعة الهليلج والزنجبيل والعود والماورد والمسك والعنبر والتوتياء ، ودم الأخوين الذي هو القاطر، واللازورد .

وقال عن أصحاب الميم وهم المطالبية الذين يدعون الوصول إلى المطالب إنهم أكثر مكراً وتسلطاً على أموال الناس، ولهم فيها أفعال لا يقع عليها أحد ولا قياس ؛ ثم إن جميع الخلق ترتبط عليهم ويصغون إليهم وإلى كلامهم ويتصوّر لهم الطمع في المال الذي يلعب بعقول الرجال وتذعن له الملوك وكل غني وصعلوك وتضرب عليه الرقاب .

ومثال ماورد في هذا الفصل ما قاله المؤلف عن سرّ مهنة «مهلك الحيات» : «فإنهم يعملون حية قائمة إلى صدرها، ويجعلون لها عينين زئبقية وقصبة الظرف إلى جوفها، وفي جوفها المشاقة والقلفونية والكبريت، فإذا وطأ على الظرف خرجت النار من فم الحية وتبقى عيناها تتوقدان، فلا يجسر أحد أن يثبت قدامها..» .

وفي كشف أسرار المعزّمين قال :

إن هذه الطائفة لهم أمور عجيبة وأحوال غريبة لا تعد ولا تحدّ ، وذلك أنهم إذا دخلوا بفرد من الرجال والنساء وأظهروا له أحوالًا لا تكيف ولا تدرك، فيذهلون عقل من يحضر، فإذا أرادوا عزمة أحد من الرجال والنساء خيلوا له أشياء فيدهشون عقله.. ثم بيّن بعضاً من أسرار هذه المهنة .

وعن أطباء الطريق قال إنهم أكثر مكراً وحيلًا من غيرهم، ولهم أمور عجيبة، وهم أجناس كثيرة وضروب لا يقع عليها إحصاء... منهم من يتكلم على العقاقير وهم أكثر كذباً على الناس، ومنهم من يتكلم على دواء الدود، ومنهم من يتكلم على الأدهان، ومنهم من يتكلم على المعجون، ومنهم من يتكلم على السفوفات، ومنهم من يتكلم على أدوية الشعر، ومنهم من يتكلم على الدرياق، ومنهم من يتكلم

على نفخة الدواب، ومنهم من يتكلم على مرارة الطبع.. ثم ذكر أسراراً تخصّ ماذكر.. ومنها أسرار الكحّالين، وأسرار الذين يُخرجون الصيبان من العين والجفن، وقلع الناصور من العين، وقطع الشرناق من العين..

وقال عن الذين يقلعون الدود من الضرس إنهم يدّعون عمل مالا يكون، فيوهمون الناس أنهم يقلعون من أضراسهم دوداً ويكذبون، ويعملون للناس أدوية لاتساوي شيئاً ..!!

والفصل السادس عشر كان عن كشف أسرار الذين يصبغون الخيل والدواب، وقال إنهم يشترون فرس الإنسان ويصبغونها ويبيعونها عليه !! وهذا أشد ما يكون من البهت والدهاء . قال :

وقد اجتمعتُ بجماعة منهم في أرض الصعيد وعيذاب في بلاد المغرب وتونس، ورأيت ذلك عياناً، فمنهم الذين يصبغون الفرس الأدهم فيعيدونه أبيض وهذا أبلغ ما يكون... ثم ذكر سرّهم وكيف أنهم يخلطون موادّ تخرج بها صبغات معينة... ومثل ذلك في صبغ بني آدم في الفصل الذي يليه .

ثم تحدث عن أسرار الذين يلعبون بالنار ويمنعون حريقها... وقال : إن هذه الطائفة ألعن الطوائف وأخبثهم وأكذبهم وأكثرهم تسلطاً على الناس وأشدّهم نفاقاً وأعظمهم كفراً وهم طوائف المجوس، وهم الذين يعبدون النار ويسجدون للشمس حين تطلع..

ثم روى قصته مع نجار مجوسي يسمى (عبدالنار) في مدينة هندبار، وكيف أنه كان يعمل أصناماً صغاراً من خشب.. يبيع الصنم الواحد بخمسة دنانير ملكية، ثم يدخل المشتري الصنم في النار فلا يحترق ولا يضرّه شيء مع أنه خشب ! وبقي معه حتى عرف سرّه وسرّ صنعته تلك.. والذي فهمته أنه أحال ذلك الخشب إلى مادة أخرى من كثرة معالجته بأدوية مختلفة ومياه معدنية متنوعة وتعريضه للشمس مدة وغمره إياه أكثر من شهر ودهنه... الخ .

ويقصد من أسرار «الذين يعملون الطعام» ما يعرف في عصرنا بالأغذية

الصناعية التي لا يكاد يفرّق بينها وبين الطعام الطبيعي من حيث الطعم والذوق.. وحتى اللون !

وهو هنا يبيّن أسرار أولئك الذين يصنعون تلك الأطعمة ويقدمونها على أساس أنها طبيعية.. مثل العسل والسمن والزبد والخل والزيت..

والعجيب أنه يتحدث عن «عمل اللبن من غير ضرع» أي الصناعي، وهو الذي عاش في القرن الثامن الهجري.. لكنه ليس كما نصنعه نحن الآن على هيئة «بودرة» . بل إن ما وصفه هنا يبعث على الاستغراب والدهشة . قال عن هذه الصنعة :

«وهذا باب معدوم لا يعلمه إلا كل فاضل، فإذا أرادوا أن يعملوا لبناً من غير ضرع يأخذون من الجوز الهندي ويقشرون عنه القشرة السوداء ويطرحونه في إناء قوارير، ثم يصبون عليه ماء ويمرسونه باليد مرساً جيداً ، حتى إذا ذاقوه وجدوه مثل اللبن . فبعد ذلك يعصرونه ثم يجمعون ما خرج منه مع الماء الذي كان فيه ويصبونه، فإنه يعود خاثراً كثير الدسم، فيجعلونه في إناء ثم يكمرونه قليلًا كما يكمر اللبن حتى يصير حامضاً، فإنه يكون لبناً جيداً...» .

وعن الذين يمشون بـ «العلفات» قال :

إن هذه الطائفة ألعن الناس وأخبثهم، وقتل هذه الطائفة مباح، وذلك أن جميع الطوائف الذين ذكرناهم في كتابنا هذا ينصبون على الناس ويأخذون ما يقدرون عليه من أموالهم ولا يستحلون دماءهم ؛ وهذه الطائفة تستحلّ المال والروح، فمن أجل ذلك قلنا إن قتلهم مباح . ولهم أمور لا يعلم أحد آخرها، فإنهم يصنعون العلفات في الخبز ثم يرمونه على الطريق ويرقبون من يأكله، ويعملونها في التين وفي جميع الطعام . ومنهم من يمشي في الطريق ويطرح عينه على من معه شيء ، فلا يزال معه حتى يلوح له عليه مضرب ثم يعلفه ويأخذ ما معه . ومنهم من يتزيّا بزيّ الأجناد ويفعل ذلك، ومنهم من يتزيّا بزيّ التجار ويوهم أن له في البلد الفلاني تجارة وهو ذاهب إليها ، ومنهم من يتزيّا بزيّ المكّاريّة ولا يكري إلا لمن يعلم أن معه مالًا ، ومنهم من يجهز العلفات مع النساء الملاح ثم يتزيّنّ ويلبسن ويمشين في

الشوارع ويتحدّقن على الناس ثم يطعنّ من يعلمن أنه غريب...

ثم أخذ يصف هذه «العلفة» وما تحويه من موادّ وتركيبات، وأن من يأكلها ينام لوقته.. ثم قال : «... ومن ذلك أن لهم علفات منوّمة، وهي تبهت الإنسان، فيبقى شاخصاً ولا يردّ جواباً ولا يعلم ما يفعل به » !

وفي الفصل الثاني والعشرين كشف أسرار الكتّاب أصحاب الشروط وقال :

« هذه الطائفة عندهم من الدهاء والحيل والمكر مالا يعلمه غيرهم، وهم أخبر العالم بالأمور الشرعية، وهم أشرّ الخلق في الباطن، وفي الظاهر يقيمون الحدود الشرعية والنواميس الساسانية، ولهم أسرار لا يعلمها غيرهم » ..

وقال في كشف أسرار الجوهريين وفعلهم :

« إن هذه الطائفة أكثر الطوائف زغلًا ومكراً ومحالًا وتسلطاً على أموال الناس، وأي شيء أرادوا من الجواهر والفصوص صنعوها وباعوها، ويصنعون ألوان الفصوص، ولهم أمور لا يطلع عليها إلا كل عالم بعلمهم، وقد ينصبون على الناس ويدّعون أنهم يفعلون ذلك، ومنهم من يعلم ذلك ويعمل ويبيع، ومنهم من لا يعلمه ويدّعيه ويأكل أموال الناس، وكيفما دارت القضية فإنهم يأكلون أموال الناس بالباطل أخزاهم الله..» .

وفي الفصل قبل الأخير أورد قصصاً وحوادث منوّعة عن أسرار بعض المهن.. منها السرقة فقال عن (حيل السرّاقين) :

إنهم يأخذون طير حمام يكون مقصوصاً، ثم يدورون في الأزقّة، فأيّ باب وجدوه مفتوحاً سيّبوا فيه ذلك الحمام ودخلوا خلفه، فإن وجدوا أحداً يقولون أمسكوا الطير الحمام، وإن لم يجدوا أحداً أخذوا ما قدروا عليه .

وقد يأخذون قطاً وقطعة لحم تكون كبيرة، ثم يدورون في الشوارع، فأي باب وجدوه مفتوحاً رموا القطعة ورموا القطّ خلفها فيأخذها فيزعقون عليه فيتمّ داخلًا في الباب وهو خلفه، فإن وجدوا أحداً يقولون أمسكوا لنا القط وخلّصوا لنا منه اللحمة، وإن لم يجدوا أحداً خطفوا ما قدروا عليه ويذهبون !

المعجم في بقية الأشياء
لأبي هلال العسكري (*)

كنت أستغرب من وضع معاجم في أسماء بعض الحيوانات أو النباتات.. ولكنني عندما رأيت معجماً صغيراً – كهذا – يعدّد فيه واحد من أئمة اللغة الأسماء الواردة فيما يبقى من الأشياء.. زال استغرابي من هناك واستقرّ هنا !

بقية الأشياء !

إنه أمر غريب حقاً !

ولكن قد توجد معاجم أخرى في أشياء أخرى لم نطّلع عليها.. تكون أغرب وأعجب..!

لقد اتبع علماؤنا أساليب كثيرة لتشويق اللغة العربية وتحبيبها إلى نفوس الناشئة

(*) المعجم في بقية الأشياء . لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري ؛ أكمله وعلّق عليه وضبطه إبراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي .ـ ط ١ .ـ القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٥٣هـ ، ١٩٣٤م ، ١٧٤ ص .

والمؤلف : لغوي، أديب، شاعر، مفسّر . نسبته إلى «عسكر مكرم» من كور الأهواز . ومن مستطرف الأسجاع ما كتبه عنه الباخرزي في «دمية العصر» قال : «بلغني أن هذا الفاضل كان يحضر السوق، ويحمل إليها الوسوق، ويحلب درّ الرزق ويمتري ، بأن يبيع الأمتعة ويشتري ، فانظر كيف يحدو الكلام ويسوق ، وتأمل هل غضّ من فضله السوق، وكان له في سوقة الفضلاء أسوة، أو كأنه استعار منهم لأشعاره كسوة» الخ ، وقد توفي بعد ٣٩٥هـ . من مؤلفاته : كتاب الصناعتين : النظم والنثر، شرح الحماسة، الأوائل، المحاسن في تفسير القرآن، ديوان المعاني، الدرهم والدينار.. (انظر الأعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لكحالة) .

ويبين المؤلف أنه اتجه إلى تأليف مثل هذه الكتب اللطيفة الحسنة المختارة، ترغيباً للزاهد وتنشيطاً للفاتر.. «وهو وإن صغر حجمه فقد كبر نفعه، لغريب ما تضمّنه من أسماء بقايا الأشياء، وبديع طريقته في الدلالة على سعة لغة العرب وفضلها على جميع اللغات..» .

وقد راجع المحققان الكتاب وأكملا النقص وزادت بضاعتهما على بضاعته.. وعللا ذلك بقولهما : «ولا تثريب على أبي هلال في هذا، فقد يكون ما هو اليوم بين أيدينا ميسور من تواليف كثيرة كان عزيز المنال بعيداً عن متناول يده» .

وطلاب العلم -وهذ! ما نفتقده الآن- وسلكوا طرقاً عديدة لتفصيل علومها وتقريب معانيها وشرح متونها وإيراد أمثلة كثيرة تبيّن مدى سعتها وغناها..

وفي هذا المعجم الصغير يورد المؤلف -ومعه المحققان- أكثر من مائتي كلمة تدل على بقية الأشياء، أوردت منها خمساً وستين كلمة باختصار، ليجد فيها القارئ «ذكريات» من لغتنا العربية الغنية.. التي أفقرها أهلها في هذا العصر!

الآس : بقية العسل في موضع النحل .

الآصية : ما يبقى من الطعام على المائدة .

الأَرْي : ما يبقى في القِدْر ملتزقاً بأسفلها. وبه سمّي العسل أرْياً لالتزاقه .

الأهزع : آخر السهام الذي يبقى في الكنانة .

البزيم : ما يبقى من المرق في أسفل القدر من غير لحم .

التريكة : بقايا تبقى من الكلأ في مواضع لا يصل إليها الرواعي . والجمع الترائك . والترائك من النساء : اللاتي لا يتزوّجن دمامة أو فقراً . والتريكة : البيضة بعد ما يخرج فرخها .

التفشيل : ما يبقى في الضرع من اللبن .

الثميلة : بقية العلف والطعام في الجوف .

الجُذْمور : بقية كل شيء مقطوع .

الجَريدة : البقية من المال .

الْمُزْعة : البقية من اللبن .

الحُتامة : ما بقي على المائدة من الطعام، أو ما سَقَط منه إذا أُكل، أو ما فضل من الطعام على الطبق .

الحُثْفُرة : خثورة وقذى يبقى في أسفل الجرّة .

الحِثْلِم : ما بقي في أسفل القارورة من الدهن .

حَمْحام : كلمة تقال عند نفي البقية . إذا قيل لك : هل بقي عندك شيء من كذا ؟ قلت : حمحام، أي ما بقي منه شيء .

الحُشارة : ما بقي على المائدة مما لا خير فيه .

الخُلاصة : ما بقي في أسفل البُرمة من الخِلاص[1] وغيره من ثُفل أو لبن أو غيره .

الخِلفة : ما يبقى بين الأسنان من الطعام، وما يبقى في الحوض من الماء .

الخُلَّة : ما يبقى في الشتاء من الشجر .

داعي اللبن : ما يُبقيه الحالب في الضّرع لينزل إليه اللبن .

الذُّنانة : بقية الشيء الهالك الضعيف .

الروضة : بقية الماء في الغدير .

السَّفَر : بقية بياض النهار بعد مغيب الشمس .

السُّؤْدة : البقية من الشباب . يقال للمرأة : إن فيها لسؤدة، أي بقية من شباب .

الشَّفا : بقية البصر، وبقية الشمس عند الغروب .

الشُّفافة : بقية الماء في الإناء بعد ما شُرب. ويقال لبقية النوم في العين شُفافة .

الشَّوايا : بقية قوم هلكوا، الواحدة شوية .

الضَّرير : بقية الجسم، وقيل هو بقية النفْس .

طَخارير : يقال لباقي الغيم في السماء، واحدها طُخرور .

الطَّفِيل : الماء الكدر يبقى في الحوض .

الطِّنْء : بقية الروح .

العَرْم : بقية القدر، وقيل وسَخُها . وبه سمي الأقلف (الذي لم يُختن) أعرم، فكأن وسخ القُلْفة باق هنالك .

العُصْم : بقية آثار الوَرْس والزعفران. تقول المرأة للمرأة : أعطيني عُصْمَ

---

(١) الخِلاص : بكسر الخاء : ما أخلصته النار من الذهب والفضة والزبد .

حنّائك، أي ما طرحتِ منه. والغراب الأعصم: الذي في أحد جناحيه ريشة بيضاء، وذلك قليل في الغربان، ولهذا قيل: عائشة في النساء كالغراب الأعصم في الغربان .

العُقبة : البقية تبقيها في القدر المستعارة إذا أردتَ ردّها على صاحبها .

العقيقة : ما يبقى من شعاع البرق في السحاب، ومثله العُقَق، وبه تُشبَّه السيوف فتسمّى عقائق. قال عنترة :

وسيفي كالعقيقة فهو كِمْعي سلاحي لا أُفَلَّ ولا فُطارا[1]

العَلامة : يقال : لفلان في هذه الدار عَلامَة، أي بقية نصيب .

العُنْشوش : بقية المال. ويقال : ماله عنشوش، أي شيء .

العِنْك : الثلث الباقي من الليل .

الغابر : الباقي، على الأشهر . وقد يقال للماضي غابر أيضاً . والغابر من الليل : ما بقي منه، وجمعه غوابر . وفي حديث ابن عمر : سئل عن جُنب اغترف بكوز من حُبٍّ[2] فأصابت يده الماء، فقال : غابره نجس، أي باقيه .

الغادر : يقال : به غادر من مرض، أي بقية .

الغُطاط : البقية من سواد الليل، وقيل : هو اختلاط ظلام آخر الليل بضياء أول النهار، أو هو أول الصبح. قال الشاعر :

قام إلى أَدْماءَ في الغُطاء يمشي بمثل قائم الفُسطاط

الفَلَق : ما يبقى من اللبن في أسفل القدح. ومنه يقال : يا ابن شارب الفلق !

القُداحة : بقية تبقى في القِدْر من المرق .

القَدِيح : ما يبقى في أسفل القدر فيُغرف بجهد .

---

(١) الكمع : الضجيع. والأفل : المنفل. والفطار : الذي فيه صدوع وشقوق .

(٢) الحُبّ : الجرّة الضخمة .

القُرارة : ما يبقى من المرق اليابس في القدر .

القُرامة : ما يبقى من الخبز ملتزقاً بالتنور .

القَزَع : بقايا الشعر المُنْتتف، الواحدة قَزَعة . والقزع أيضاً : أن تحلق رأس الصبي وتترك في مواضع منه الشعر متفرقاً غير محلوق تشبيهاً بقزع السحاب، وهو المتفرق منه .

القُشام : ما يبقى من كُسار الخبز وغيره على المائدة .

القُصارة : ما بقي في السنبل من الحب بعدما يُدْرَسْ .

القِصمة من السواك : الشظية منه تبقى في فم المستاك فينفُثها .

الكُدامة : بقية كل شيء أُكل .

الكَسْم : البقية تبقى في يدك من الشيء اليابس .

اللُّعاق : ما بقي في فيك من طعام لَعِقْته .

اللُّفاظة : بقية الشيء ، يقال : ما بقي إلا نُضاضة ولعاعة ولفاظة، أي بقية قليلة .

اللُّماظة : بقية الطعام تبقى في الفم، والتلمّظ : تتبُّع ذلك باللسان .

المجلَّف : الذي بقيت منه بقية .

المَسِطة والمَلِطة : ما يبقى في أسفل الحوض من طينه وكُدْرته .

المُواعة : بقية كل ما أُذيب، وقد تستعمل في بقية كل شيء .

الناطِل : الفضلة تبقى في المكيال..

النُّفاثة : ما يبقى من شظايا المسواك في الفم فتنفُثها، وهو أن تخرجها على طرف لسانك ثم تلقيها. يقال : لو سألتني قِصمة سواك وقُصامة سواك وضُوارة سواك ونُفاثة سواك ما أعطيتك .

الهُشامة : ما يبقى من الحطب على الأرض بعد ما حُمل . فإذا كان من القصب فهو الهِبْرية والإِبْرية .

الهُنانة : بقية المخ .

الهوادة : البقية من القوم يُرجى صلاحهم بها وسلامة بعضهم من بعض. وأنشد الخليل :

ومن كان يرجو في تميم هَوادة   فليس لجَرْم[1] في تميم أواصِرُ

الوَلْث : بقية العجين في الدَّسيعة، وبقية الماء في المُشَقَّر[2] ، والبقية من الضرب والوجع، والفضلة من النبيذ تبقى في الإناء، وبقية العهد .

---

(١) جَرْم : بطن في طيء .

(٢) المشقَّر : القدح العظيم والقربة من الأدم .

خطبة واصل بن عطاء
التي تجنب فيها الراء (*)

كان واصل بن عطاء، مع مارزقه الله من بيان وحسن تصريف للقول، صاحب عاهة منطقية عُرف بها وذاعت بين الناس، وهي لثغة شنيعة كانت تقع له في حرف الراء فتحرجه في ذلك أيّما إحراج، فيأتي لها بمجانبتها إلى سواها من الحروف، ويحمل على نفسه في هذا الأمر ويجهدها فيوفق توفيقاً بالغاً .

قال أحد معاصريه :

ويجعل البُرَّ قمحاً في تصرّفه   وجانب الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطراً والقول يعجله   فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

قال الجاحظ : وسألت عثمان البري : كيف كان واصل يصنع في العدد، وكيف كان يصنع بعشرة وعشرين وأربعين، وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الآخرة ورجب ؟ فقال : مالي فيه إلا ما قاله صفوان :

ملقّن ملهم فيما يحاوله   جمٌّ خواطره جوّاب آفاق

(*) كتاب خطبة واصل بن عطاء المعتزلي موجود ضمن المجموعة الثانية من (نوادر المخطوطات) بتحقيق عبدالسلام هارون ـ ط٢ ـ القاهرة : شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م ، ص ص ١١٧ - ١٣٦ . وما كتب في المقدمة هو مقتطفات مما كتبه المحقق . قال عنه في الأعلام ما ملخصه : واصل ابن عطاء الغزّال، أبو حذيفة.. رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين . سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى «الواصلية» . وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق.. ولد بالمدينة ونشأ بالبصرة . ولم يكن غزّالاً، وإنما لقب به لتردده على سوق الغزّالين بالبصرة . له تصانيف، منها : «أصناف المرجئة» و«المنزلة بين المنزلتين» و«معاني القرآن» و«طبقات أهل العلم والجهل»، و«السبيل إلى معرفة الحق» و«التوبة» . ولد عام ٨٠هـ وتوفي عام ١٣١هـ .

وفي حفل جامع حُشد له أقدر الخطباء وأبرعهم براعة، وكان ذلك بالعراق، إذ اجتمع عِلْيَة القوم والناسُ ليشهدوا حفلًا عند عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز والي العراق، تبارى فيه هؤلاء الخطباء، وهم : خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى، وواصل بن عطاء . وتناوبوا القول على المنبر على هذا النظام . فانتزع خالد وشبيب والفضل قبله إعجاب القوم انتزاعاً .. فهم كانوا سادة الخطباء في ذلك الزمان ، وهم كانوا قد أعدّوا خطبهم من قبل وحبّروها ونمّقوها . وما إن فرغ الثلاثة حتى نهض واصل يهدر، وبداهته تغلي، بخطبة ارتجلها ارتجالًا ، واقتضبها اقتضاباً ، وأطال فيها إطالة . وحرص كل الحرص على أن ينزع الراء منها . ففاق إعجابُ الناس والوالي بواصل بن عطاء إعجابهم بالثلاثة قبله . وأظهر الوالي الصّلات ، فأجزل صلات الثلاثة قبله ، ثم ضاعف لواصل الصلة تقديراً لعبقريته الخطابية النادرة.. وهذه هي خطبته :

الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوّه، ودنا في علوّه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلَق، ولم يخلقه على مثالٍ سبق، بل أنشأه ابتداعاً، وعدّله اصطناعاً، فأحسن كل شيء خَلْقَه وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدلّ على ألوهيّته، فسبحانه لا معقّب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كلُّ شيء لعظمته، وذلّ كل شيء لسلطانه، ووسع كلَّ شيء فضلُه، لا يعزُبُ عنه مثقال حبة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا مثيل له، إلهاً تقدَّست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتنزّه عن شبه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يُعصىٰ فيحلُم، ويُدعىٰ فيَسمع، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون . وأشهد شهادةَ حق، وقولَ صدق، بإخلاص ونية، وصدق طويّة، أن محمد بن عبدالله عبده ونبيّه، وخالصته وصفيّه، ابتعثه إلى خلقه بالبيّنات والهدى ودين

الحق، فبلَّغ مألُكَتَه[1] ، ونصح لأمته، وجاهد في سبيله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصده عنه زعم زاعم، ماضياً على سنّته، موفياً على قصده، حتى أتاه اليقين . فصلّى الله على محمد وعلى آل محمد أفضل وأزكى، وأتمّ وأنمى، وأجل وأعلى صلاةٍ صلّاها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، فأ حضّكم على ما يدنيكم منه، ويزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معاد . ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدَعها، وفواتن لذّاتها، وشهوات آمالها، فإنها متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شيء منها يزول . فكم عاينتم من أعاجيبها، وكم نصبت لكم من حبائلها، وأهلكت ممن جَنَح إليها واعتمد عليها، أذاقتهم حلواً، ومزجت لهم سمّاً . أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيّدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدّوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد، قبضتهم بمخلبها، وطحنتهم بكلكلها، وعضّتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقاً، ومن العزّ ذلّاً، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحود، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تُعاين إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحسُّ منهم من أحد ولا تسمع لهم نبْساً . فتزوّدوا عافاكم الله فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون . جعلَنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لحظّه وسعادته، وممن يستمع القول فيتّبع أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين كتاب الله، الزكيّة آياتُه، الواضحة بيّناته، فإذا تُلي عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تهتدون .

أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي، إن الله هو السميع العليم . بسم الله

---

(١) المألكة : الرسالة .

الفتاح المنّان . ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كِفواً أحد﴾ .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، وبالآيات والوحي المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم، وأدخلنا وإياكم جنّات النّعيم . أقول مابه أُعِظُكم، وأستعتبُ الله لي ولكم . ا هـ .

فانظر إليه حين أراد أن يقول : أعوذ بالله القوي من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، قال : أعوذ بالله القوي، من الشيطان الغوي، بسم الله الفتاح المنّان .

وإذا أراد أن يتلو سورة كاملة من الكتاب قرأ سورة الإخلاص لخلوّها جميعها من الراء . وحين يريد أن يقتبس من القرآن الكريم : ﴿وسعَ كرسيّه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما﴾ يقول : ولا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق .

وإذا أراد أن يقول ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة﴾ قال : مثقال حبة... إلى كثير من أشباه هذا ! [1] .

---

(١) من تعليق المحقق .

مَن توفي عنها زوجها
فأظهرت الغموم وباحت بالمكتوم
لابن المرزبان (*)

« هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارئ ، كتاب صغير في حجمه، كبير في قيمته، نادر في بابه، طريف في موضوعه . فهو قد طرق باب وفاء الزوجة لزوجها هذا الذي نكبها الدهر بفراقه وموته، فسجلت هذا الغيابَ المفاجئ وهذا الحادث الجلل بأبيات تعبّر فيها عن مشاعر الحزن والحب والوفاء، هذه الظاهرة من جانب المرأة لفتت انتباه ابن المرزبان – أحد علمائنا الأجلاء في القرن الثالث – ربما لكونها ظاهرة نادرة في مجتمعه، فدوّن لنا ما لقيه من روايات وأخبار في هذا الكتاب » .

هذا ما قاله المحقق بين يدي كتيّب صغير، لم تتجاوز صفحات متنه التسع صفحات ! استأثر باهتمامي أيضاً، فأحببت أن أضع بين يدي القارئ الكريم بعض ما ورد عن هذا الوفاء النادر ..

(*) كتاب من توفي عنها زوجها فأظهرت الغموم وباحت بالمكتوم . تأليف أبي عبدالله أحمد بن خلف بن المرزبان ، ت ٣١٠هـ ؛ تحقيق عبدالعزيز بن ناصر المانع . نشر في مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود بالرياض ، المجلد الثامن ، ١٤٠١هـ ، ص ص ١٣٧ – ١٦٣ .

والمؤلف – كما قال المحقق – : هو أبو عبدالله أحمد بن خلف بن محمد بن المرزبان بن بسام المحوّلي . لحقته هذه النسبة لأنه كان يسكن موضعاً ببغداد يقال له باب المحوّل ، ولعله جهة الباب الذي يخرج منه القاصد إلى المحوّل ، وهي قرية على فرسخين من بغداد . كان صاحب أخبار وملح وأشعار ، وله تصانيف وروايات عن عبدالله بن أبي سعيد الوراق ، وأحمد بن أبي طاهر ، وأبي بكر بن أبي الدنيا ، وأبي سعيد السكّري .. وغيرهم . وهو الأخ الأصغر لمحمد بن خلف بن المرزبان ذي الشهرة الواسعة . واعتمد في تحقيقه على نسخة واحدة فريدة محفوظة في مكتبة تشستربيتي بأيرلندا .. ومما يزيد في قيمة المخطوط هذا الحشد من العلماء في سلسلة رواته عن مؤلفه .. ولا غبار على التحقيق ، فقد بلغت هوامش الكتاب ستة وخمسين هامشاً ، وأربعة وثلاثين بين مصدر ومرجع ، ما عدا هوامش المقدمة .

حدّث أبو الحسن الكاتب عن محمد بن سلّام الجمحي قال : حدثني رجل من قيس أن امرأة منهم مات عنها زوجها فقالت :

أبكي شباباً وحسناً وصورة وجمالا
وحُسنَ دين وعقل لقد رأيتَ كمالا
قد كان إلفي وخِدني أعدُّ فيه خصالا
قد كان - والله - سُخنا وكان عذباً زُلالا
قد كان بعلي كريما لا يُحسن الإذلالا

ثم بكت عليه حتى عميت !

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال :

خطبَ نائلةَ بنتَ الفرافصة قوم من قريش بعد عثمان بن عفّان، رضي الله عنه، فدعت بمرآة فنظرت إلى فيها -وكانت من أحسن الناس ثغراً- فأخذت فِهراً فدقّت به أسنانها، فسال الدمُ على صدرها، فبكى جواريها وقلن لها : ماذا صنعتِ بنفسك ؟ فقالت : إني رأيت الحزن يبلىٰ كما يبلىٰ الثوب، وإني خفتُ أن يبلىٰ حزني على عثمان فيُطّلَع مني على ما اطّلع عليه عثمان، وذلك ما لا يكون أبداً .

وهي التي تقول :

أبى الله إلا أن تكوني غريبة بيثرب لا تَلْقَين أمّاً ولا أبا

وذكر الأصمعي أن امرأتين كانتا متواخيتين فهلك زوجاهما، فحلفت إحداهما أن لا تَزَوَّج بعده، فقالت لها الأخرى : ما حملك على اليمين ؟ قالت : لا أجد في الرجال مثل زوجي ؛ إنه كان يعطيني سؤلي ، ويصدّق قيلي، ويكرم نزلي .

قالت الأخرى : كان زوجي خيراً من زوجك ، كان عزيز الجار، عظيم الثار، صلت الجبين، أشمّ العرنين، سمح اليمين، يعطي المئين بعد المئين ..

قالت الأخرى : زوجي مليح الإلف، وبهزم الصفّ، إن قَدِرَ كَفّ، وإن نال مغنماً عفّ، وإن سئل بذل، عاش حميداً، ومات فقيراً .

قالت الأخرى : كان زوجي رحب الفناء، عظيم الغناء، إن استقبلْتِه هِبته، وإن ذُكر لديك خفتِه .

قالت الأخرى : كان زوجي يباري الشَّمال، ويعانق الأبطال، ويملأ رِقَّه، ويعطي الرمح حقَّه، يُروي نداماه، ويحمي حماه، وإن لقي قِرناً هدَّه، وإن خاف معطلًا ردّه، فلذلك لا أتزوّج بعده .

وحدث محمد بن الحسين عن أبيه قال : توفي زوج سُعدى الكلبية، وكان ابنَ عمها، وكان يقال له وهب، فقالت فيه :

ألا يا ليتني سُليتُ وهبا — وهل يُغني من الجِذْثان ليتُ
وجدّد بيته وهب وأمسى — لوهبٍ من جديد الأرض بيتُ
فليت الصبح ليل بعد وهبٍ — تطاوله وليت الحيَّ ميتُ

وحدّث أعرابي من بني عمرو بن كلاب قال : كانت أمُّ شبيب بنت قيس بن القاسم السُّلَمية زوجة حارثة بن بدر الغُداني، فمات عنها، فتزوّجها بشر بن شفاف بعده، فقالت تذكُر الأول :

بُدِّلتُ بشراً بلاء أو معاقبة — من فارس كان قِدْماً غير خوّار
فليتني قبل بشر كان صادفني — داعٍ إلى الله أو داعٍ إلى النار

وعن مصعب بن عبدالله الزبيري قال : تزوّج مالك بن عمرو الغسّاني بابنة عمّ النعمان بن بشير، فشغف كل واحد منهما بصاحبه . وكان مالك شجاعاً، فتشرّطت عليه إذا لقي أن لا يُقاتل ؛ شفقاً عليه وضنّاً به . وإنه غزا حيّاً من لخم ، فباشر القتال، فأصابته جراح فقال ، وهو مثقل من الجراح :

ألا ليت شعري عن غزال تركته — إذا ما أتاه مصرعي كيف يصنع
فلو أنني كنتُ المؤخّر بعده — لما برحت نفسي عليه تقطَّعُ

وإنه مكث يوماً وليلة، ثم مات من جراحته . فلمال وصل خبره إلى زوجته بكت سنة ، ثم اعتُقل لسانها فامتنعت من الكلام، وكثُر خُطّابها ، فقال عمومتها وولاة أمرها : نزوّجها لعل لسانها ينطلق ويذهب حزنها ، فإنما هي من النساء ، فزوّجوها بعض أبناء الملوك، فساق إليها ألف بعير، فلما كانت الليلة التي أهديت فيها قامت على باب القبّة ثم قالت :

يقول رجالٌ : زوِّجوها لعلها   تقـرُّ وتـرضى بعــده بحليـل
فأخفيتُ في النفس التي ليس بعدها   رجاءٌ لهم ، والصدق أفضل قيل
أَبَعْدَ ابنِ عمي فارس القوم مالك   أُزَفُّ إلى (. . . . .) [1]
وحدّثني أصحابه أن مالكـاً   أقام ، ونادى صحبه برحيل
وحدّثني أصحابه أن مالكـاً   ضَروبٌ بنصـل السيف غيرُ نكول
وحدّثني أصحابه أن مالكـاً   جوادٌ بما في الرحل غيرُ بخيل
وحدّثني أصحابه أن مالكـاً   خفيف على الأحداث غير ثقيل
وحدّثني أصحابه أن مالكـاً   صَرُوم كماضي الشفرتين صقيل

فلما فرغت من الشعر شهقت ، فماتت !

---

(١) بياض في الأصل .

الروح

لابن القيم (*)

هذا الكتاب الفريد فيه إجابة على واحد وعشرين سؤالًا مما يتعلق بأرواح الأحياء والأموات بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء الأخيار «ولا أدري أسئل مصنفه عنها فأجاب، أم سئل عن البعض ولكن هو أطال الخطاب..» .

(*) الروح : في الكلام على أرواح الأموات والأحياء .. شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية، ت ٧٥١هـ .ــ الرياض : مكتبة الرياض الحديثة، د. ت، ٢٨٠ ص . وقد قرأت أن الكتاب قد حققه وقدم له وعلّق حواشيه محمد إسكندر يلدا ، وصدر عن دار الكتب العلمية ببيروت ، وذكر أن الطبعة الأولى من الكتاب صدرت في مصر عام ١٣٨٦هـ . ويقع الكتاب المحقق في ٣٧٤ صفحة .

ولا نظير لهذا الكتاب الذي جمع فيه ابن القيّم ما يتعلق بالروح من مكتبته الضخمة التي حوت جميع أنواع العلوم . وفي إحدى المسائل التي أجاب عليها في هذا الكتاب قال (ص ٩٣) : «فهذا ما تلخّص لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت ، ولا تظفر به مجموعاً في كتاب واحد غير هذا ألبتة » .

ويحرص ابن القيّم على إيراد الأدلة والأخبار الخاصة بالموضوع وينسبها إلى أصحابها.. ويناقشهم فيها . وممن ناقشهم في هذا الكتاب : ابن حزم، قال (ص ١٠٨) : «وهو دائماً يشنّع على من قال قولًا لا دليل عليه ، فأي دليل له على هذا القول من كتاب وسنة ؟ » .

وإذا كان الكتاب كله إيراد أدلة وبيان رأي ، فإن المناقشات والتعقيبات تلفّ الكتاب كله . ولا يترك ابن القيّم رأياً ولو كان ضعيفاً .. بل حتى تافهاً إلا ويورده.. ليصبح الكتاب مرجعاً في بابه، حيث لا وجود لمثل هذه الكتب مفردة.. بمثل هذه الأخبار .

وينقل أخباراً من « كتاب النفس والروح » للحافظ أبي عبدالله بن منده كما ورد في أكثر من مكان . كما دلّ على وجود كتب أخرى استعان بها . قال في ص (٧٠) : « ... وأما رؤية المنام فلو ذكرناها لجاءت عدة أسفار ، ومن أراد الوقوف عليها فعليه بكتاب المنامات لابن أبي الدنيا، وكتاب البستان للقيرواني وغيرهما.. » .

وورد في (ص ١٤٥) عن الروح وأنها مخلوقة وما يتعلق بذلك من مسائل، أنه قد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ، وردّوا على من يزعم أنها غير مخلوقة . وصنف الحافظ أبو عبدالله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره، والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهرجوري والقاضي أبو يعلى .

المسألة الأولى :

هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا ؟

وقد بيّن المؤلف أن السلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي ويستبشر به . قال ابن عبدالبرّ : ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من مسلم يمرّ على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتى يردّ عليه السلام » . وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيّعين له إذا انصرفوا عنه . قال المصنف (ص ١٠) : وقد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يُقرأ عند قبورهم وقت الدفن... وكان الإمام أحمد ينكر ذلك أولًا حيث لم يبلغه فيه أثر ثم رجع عن ذلك .

وفي الصفحة نفسها أن الإمام أحمد - رحمه الله - قال لضرير يقرأ عند قبر : إن القراءة عند القبر بدعة .. ثم ذكّره بعضهم بما قال مبشر الحلبي فقال له أحمد : فارجع وقل للرجل يقرأ .

ثم أورد ما حدّثت به ابنة الصحابي ثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنه - عندما استشهد في اليمامة وعليه درع نفيسة ، وكيف أن أحد المسلمين رآه في المنام فقال له ثابت : « أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيّعه ».. ثم ذكر له أن فلاناً سرق درعه، وعيّن مكانه، وطلب أن يخبر أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - أن عليه ديناً - أي على ثابت - وفلان من رقيقه عتيق... فبعث خالد بن الوليد إلى الدرع فأتي بها، وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته. قال : ولا نعلم أن أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس .

المسألة الثانية :

هل تتلاقى أرواح الموتى وتتزاور وتتذاكر أم لا ؟

وجوابها أن الأرواح قسمان :

أرواح معذّبة وأرواح منعّمة .

فالمعذّبة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي .

والأرواح المنعّمة المرسلة غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان فيها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا . فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها . وروح نبيّنا محمد ﷺ في الرفيق الأعلى .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل . وهذا يدلّ على تلاقيهم .

المسألة الثالثة :

هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا ؟

قال المؤلف : شواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها أحد إلا الله تعالى . والحس والواقع من أعدل الشهود بها . فتلتقي أرواح الأحياء والأموات كما تلتقي أرواح الأحياء . وقد قال تعالى : ﴿ الله يتوفَّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

ثم روى قول ابن عباس الذي أخرجه ابن منده : بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها..

قال : وهذا أحد القولين في الآية.. والذي يترجّح هو القول الأول، لأنه سبحانه أخبر بوفاتين : كبرى وهي وفاة الموت ، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم.. الخ .

وقد دلّ على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحيّ يرى الميّت في منامه فيستخبره، ويخبره الميت بما لا يعلم الحي، فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل، وربما أخبره بمالٍ دفنه الميت في مكان لم يعلم به سواه، وربما أخبره بدَيْن

عليه.. وذكر له شواهده وأدلته . وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحد من العالمين، وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر، وربما أخبره عن أمور يقطع الحي أنه لم يكن يعرفها غيره .

وبعد أن أورد رؤى ومنامات قال (ص ٢٩) :

وهذا باب طويل جداً، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه وقلت هذه منامات وهي غير معصومة فتأمّل من رأى صاحباً له أو قريباً أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا، أو أخبره بمال دفنه أو حذّره من أمر يقع أو بشّره بأمر يوجد فوقع كما قال... الخ .

ومما أورده هنا أن أحدهم رأى أويس القرني في المنام فأرشده وقال له : ابتغ رحمة الله عند محبته، واحذر نقمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك .

ورأى آخر ميسرة بن مسلم فقال له : اتباع الآثار وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقرّبان من الجبار .

وقال في ص (٣٢) : وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده وإقباله على الآخرة عن منام رآه أو رُئِي له ، وكم ممن استغنى وأصاب كنزاً دفيناً عن منام.. وهذا عبدالمطلب دُلَّ في النوم على زمزم وأصاب الكنز الذي كان هناك . قال : وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى من وصفه له في منامه فكثير جداً، وقد حدّثني غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه رآه بعد موته وسأله عن شيء كان يشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب .

وقال في آخر هذه المسألة : وبالجملة فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها .

المسألة الرابعة :

وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده ؟

وبعد أن أورد قولين في هذا قال :

والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تُعدم وتضمحل وتصير عدماً فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب ..

ثم أورد فروعاً لهذه المسألة .

المسألة الخامسة :

وهي أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأي شيء يتميّز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاق، وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذي كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها ؟

قال بعدها مباشرة :

هذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها، ولا يُظفر فيها مِنْ كُتب الناس بطائل ولا غير طائل، ولا سيّما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص. فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه، وكذلك من يقول هي عرض من أعراض البدن، فتميُّزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها فلا تميُّز لها بعد الموت، بل لا وجود لها على أصولهم، بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحي . ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التي تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل، والقول أنها :

ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن . وعلى هذا أكثر من مائة دليل ....

وقال في آخر المسألة :

.... وتميّز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميّز البدن عن البدن بصفاته .

ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميّز . وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه، وبين روحيهما غاية التباين . فإذا تجرّدت هاتان الروحان كان تميّزهما في غاية الظهور .

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً قلّ أن ترى بدناً قبيحاً وشكلًا شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه، وقلّ أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبه آفة تناسبها . ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقلّ أن تخطىء في ذلك ..

وقلّ أن ترى شكلًا حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له، هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلُّم وتدريب واعتياد .

المسألة السادسة :

وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا ؟

قال : فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس ، حيث صرّح بإعادة الروح إليه... ثم أورد حديثاً طويلًا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه أوله ، ورواه أبو عوانة الإسفراييني في صحيحه .

وحتى يزيح بعض الإشكالات عن القارىء ضرب له مثلًا بقوله :

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي وحياته غير حياة المستيقظ، فإن النوم شقيق الموت، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم تُردّ روحه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت، فتأمّل هذا يزيل عنك إشكالات كثيرة .

ثم اختصر الجواب بإيراد قول شيخ الإسلام :

الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عودة الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور وقابلهم آخرون

فقالوا : السؤال للروح بلا بدن، وهذا قاله ابن مرة وابن حزم وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة ترد، ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص .

ثم فرّع عن هذه المسألة مسألة أخرى وهي قول السائل :

هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس ؟

وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا ؟

قال :

مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعّمة أو معذّبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لربّ العالمين، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى . ثم قال :

أما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي ﷺ .

المسألة السابعة :

وهي قول السائل : ما جوابنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر وسعته وضيقه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه ؟

وأجاب على هذه الشُبه مطولًا، ولكن ذكر قاعدة جيدة نوردها هنا (ص ٦٣) :

إن الله سبحانه جعل الدُور ثلاثاً : دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار . وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، وركّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعاً لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على

ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أظهرت النفوس خلافه. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألّمت بألمها والتذّت براحتها وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدانُ الأرواحَ في نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم . فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية والأبدان كالقبور لها . والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيماً أو عذاباً . فأحِط بهذا الموضوع علماً واعرفه كما ينبغي يزل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج .

وضرب لنا مثلًا أنموذجاً في الدنيا من حال النائم . فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجري على روحه أصلًا والبدن تبع له، وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيراً مشاهداً، فيرى النائم أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب في جسمه، ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه ويذهب عنه الجوع والظمأ .

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح واستعانت بالبدن من خارجه، ولو دخلتْ فيه لاستيقظ وأحسّ، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعَّم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع فهكذا في البرزخ بل أعظم، فإن تجرُّدَ الروح هنالك أكمل وأقوى وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً أصلًا..

المسألة الثامنة :

وهي قول السائل : ما الحكمة في كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليُحذر ويُتقى ؟

فأجاب ابن القيّم أن الله تعالى أنزل على رسوله وحيَيْن وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما : الكتاب والسنة . وقد ثبت عن الرسول ﷺ القول بعذاب القبر .

ثم بيّن أن نعيم البرزخ وعذابه مذكوران في القرآن في غير موضع، منها قوله تعالى عن آل فرعون :

﴿ النار يعرضون عليها غدوّاً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره . ومنها :

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾

المسألة التاسعة :

وهي في قول السائل : ما الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور ؟

وأجاب على هذا السؤال مجملًا ومفصلًا :

أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه . فلا يعذّب الله روحاً عرفته وأحبّته وامتثلت أمره واجتنبت نهيهٔ ، ولا بدناً كانت فيه أبداً ، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده... الخ .

وأما الجواب المفصّل فقد ذكر أنواعاً من الآثام التي ارتكبها أصحابها فتؤدي بهم إلى العذاب.. من ذلك المشي بالنميمة وعدم الاستبراء من البول كما ورد في الحديث .

وممن عدّدهم ابن تيمية :

أعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ، والذي خوّفْته بالله وذكّرتَهُ به لم يرعو ولم ينزجر ، فإذا خوّفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكفّ عما هو فيه . والذي يُهدىٰ بكلام الله ورسوله فلا يهتدي ولا يرفع به رأساً ،

فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطيء عضّ عليه بالنواجذ ولم يخالفه . والذي يُقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به ، فإذا سمع (نداء) الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سرّه وتواجد وهاج من قلبه دواعي الطرب وودّ أن المغني لا يسكت ، والذي يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالبندق أو بريء من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ، ولو هُدّد وعوقب ، والذي يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وأضرابه وهو المجاهر.. الخ .

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذّبين والفائز منهم قليل . فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات وعذاب ، ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفي باطنها الدود هي والبليات تغلي بالحسرات كما تغلي القدور بما فيها ..

المسألة العاشرة :

ما الأسباب المنجية من عذاب القبر ؟

جوابها أيضاً من وجهين :

مجمل ومفصّل :

أما المجمل فهو تجنب تلك الأسباب التي تقتضي عذاب القبر، ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه ، ثم يجدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله ، فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ، ويفعل هذا كل ليلة..

أما المفصّل : فذكر أحاديث عن النبي ﷺ فيما ينجي من عذاب القبر . من ذلك : الحديث الذي رواه أبو موسى المديني وبيّن علته في كتابه الترغيب والترهيب وجعله شرحاً له وقال في آخره : هذا حديث حسن جداً .

وهو عن عبد الرحمن بن سمرة قال :

« خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في صفة بالمدينة، فقام علينا فقال : إني رأيت البارحة عجباً ! رأيت رجلًا من أمتي أتاه مَلَك الموت ليقبض روحه فجاءه برّه بوالديه فردّ ملَك الموت عنه . ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاء ذِكْرُ الله فطيّر الشياطين عنه . ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم . ورأيت رجلًا من أمتي يلهث عطشاً كلما دنا من حوض مُنع وطُرد ، فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه وأرواه . ورأيت رجلًا من أمتي ورأيت النبيّين جلوساً حلقاً حلقاً ، كلما دنا إلى حلقة طُرد ومُنع ، فجاءه غُسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي . ورأيت رجلًا من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحيّر فيه ، فجاءه حجّه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور . ورأيت رجلًا من أمتي يتقي وهج النار وشررها، فجاءته صدقته فصارت ستراً بينه وبين النار وظلًا على رأسه . ورأيت رجلًا من أمتي يكلّم المؤمنين ولا يكلّمونه، فجاءته صلته لرحمه فقالت : يا معشر المؤمنين إنه كان وَصُولًا لرحمه فكلّموه، فكلّمه المؤمنون وصافحوه،وصافحهم . ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته الزبانية، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة . ورأيت رجلًا من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل . ورأيت رجلًا من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه . ورأيت رجلًا من أمتي خفّ ميزانه فجاءه أفْرَاطُه[1] فثقلوا ميزانه . ورأيت رجلًا من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى . ورأيت رجلًا من أمتي قد هوى في النار فجاءته دمعته التي قد بكى من خشية الله سبحانه وتعالى فاستنقذته

(١) جمع فرط . والمراد بهم أولاده الذين ماتوا صغاراً .

من ذلك . ورأيت رجلًا من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف، فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن رَوْعه ومضى . ورأيت رجلًا من أمتي يزحف على الصراط يحبو أحياناً ويتعلق أحياناً ، فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته . ورأيت رجلًا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغُلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » .

قال الحافظ أبو موسى : هذا حديث حسن جداً، رواه عن سعيد بن المسيب وعمر بن ذر وعلي بن زيد بن جدعان .

ونحو هذا الحديث مما قيل فيه إن رؤيا الأنبياء وحي، فهو على ظاهرها، لا كنحو مارُوي عنه ﷺ أنه قال : رأيت كأن سيفي انقطع فأوّلته كذا وكذا .

المسألة الحادية عشرة :

وهي أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق ؟

ووصل إلى أن القرآن والسنة يدلان على أن السؤال للكافر والمسلم . قال الله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يُسأل مَن ربك وما دينك ومن نبيك ؟

المسألة الثانية عشرة :

وهي أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها ؟

منهم من قال : إنما سؤال الميت في هذه الأمة . وخالف آخرون وقالوا : السؤال لهذه الأمة ولغيرها ، وتوقف آخرون .

وقال المصنف : والظاهر والله أعلم أن كل نبي مع أمته كذلك، وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم ، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة .

المسألة الثالثة عشرة :

وهي أن الأطفال هل يمتحنون في قبورهم ؟

أورد المصنف قولين في هذا على التفصيل .

المسألة الرابعة عشرة :

هل عذاب القبر دائم أو منقطع ؟

جوابها أنه نوعان :

نوع دائم سوى ما ورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين، فإذا قاموا من قبورهم قالوا : ﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ .

النوع الثاني : إلى مدة ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العُصاة الذين خفّت جرائمهم، فيعذّب بحسب جرمه ثم يخفف عنه ، كما يعذّب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب . وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم..

المسألة الخامسة عشرة :

وهي أن مستقرّ الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة، هل هي في السماء أم في الأرض ؟ وهل هي في الجنة أم لا ؟ وهل تودع في أجساد غير أجسادها التي كانت فيها فتنعم وتعذب فيها أم تكون مجردة ؟

قال المصنف : هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس واختلفوا فيها ، وهي إنما تتلقى من السمع فقط ، واختلف في ذلك ..

وبعد خمس وعشرين صفحة لخّص ما أورده فقال :

فإن قيل فقد ذكرتم أقوال الناس في مستقرّ الأرواح ومأخذهم فما هو الراجح من هذه الأقوال حتى نعتقده ؟

قيل : الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت :

فمنها : أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى ، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء .

ومنها : أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعم ، بل من الشهداء من تُحبس روحه عند دخول الجنة لِدَيْن عليه أو غيره كما في المسند عن محمد بن عبدالله بن جحش أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله مالي إن قُتلت في سبيل الله ؟ قال : الجنة . فلما ولّى قال : إلا الذي سارّني به جبريل آنفاً .

ومنهم : من يكون محبوساً على باب الجنة كما في الحديث الآخر : رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة .

ومنهم : من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلّها ثم استشهد فقال الناس : هنيئاً له الجنة، فقال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلّها لتشتعل عليه ناراً في قبره .

ومنهم : من يكون مقرّه باب الجنة كما في حديث ابن عباس : الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية . رواه أحمد . وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما إلى الجنة حيث شاء .

ومنهم : من يكون محبوساً في الأرض لم تَعْلُ روحُه إلى الملأ الأعلى، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية كما لا تجامعها في الدنيا، والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذِكْرَه والأُنس به والتقرب إليه، بل هي أرضية سفلية، لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك، كما أن

النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرب إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها . فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة، والله تعالى يزوّج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد كما تقدم في الحديث، ويجعل روحه يعني المؤمن مع النسم الطيب أي الأرواح الطيبة المشاكلة، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخواتها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك .

ومنها : أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تَسبح فيه وتُلقم الحجارة، فليس للأرواح سعيدها وشقيّها مستقر واحد بل روح في أعلى عليين، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض .

وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب وكان لك بها فضل اعتناء، عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها وأن لها شأناً غير شأن البدن وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً ، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق، وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمه، وحالها بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار .

ومما قاله في هذه المسألة (ص ١٠٤) .

وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شيء له، ثم يمرّ بباطل ولهو من غناء أو شبهه أو زور أو غيره فيصغي إليه ويفتح له قلبه حتى يتأدى له فيتخبط عليه ذلك الذي سمعه من العلم والحكمة، ويلتبس عليه الحق بالباطل. فهكذا شأن الأرواح عند النوم، وأما بعد المفارقة فإنها تعذّب بتلك الاعتقادات والشبه الباطلة التي كانت حظها حال اتصالها بالبدن. وينضاف إلى ذلك عذابها

بتلك الإرادات والشهوات التي حيل بينها وبينها، وينضاف إلى ذلك عذاب آخر ينشئه الله لها ولبدنها من الأعمال التي اشتركت معه فيها، وهذه هي المعيشة الضنك في البرزخ، والزّاد الذي تزوّد به إليه .

المسألة السادسة عشرة :

وهي : هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا ؟

فالجواب أنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير :

أحدهما ما تسبب إليه الميت في حياته .

والثاني دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج .

واختلفوا في العبادة البدنية، كالصوم، والصلاة، وقراءة القرآن، والذكر . فمذهب الإمام أحمد وجمهور السلف وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة. والمشهور من مذهب الشافعي ومالك أن ذلك لا يصل .

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لا يصل إلى الميت شيء ألبتة لا دعاء ولا غيره .

ومما أورده في هذه المسألة :

فإن قيل فما الأفضل أن يهدى إلى الميت ؟

قيل : الأفضل ما كان أنفع في نفسه . فالعتق عنه والصدقة أفضل من الصيام عنه، وأفضل الصدقة ما صادفت حاجة من المتصدَّق عليه وكانت دائمة مستمرة . ومنه قول النبي ﷺ : « أفضل الصدقة سقي الماء » . وهذا موضع يقلّ فيه الماء ويكثر فيه العطش، وإلا فسقي الماء على الأنهار والقِنى لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة، وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدق من الداعي وإخلاص وتضرّع، فهو في موضعه أفضل من الصدقة عنه كالصلاة على الجنازة والوقوف للدعاء على قبره .

وبالجملة فأفضل ما يُهدى إلى الميت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه .

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوّعاً بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

ثم ناقش المعارضين بإسهاب اعتباراً من (ص ١٤٢) .

المسألة السابعة عشرة :

وهي : هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهي من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً ؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخ في آدم من روحه، فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا ؟ وما حقيقة هذه الإضافة ؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة ؟؟

قال : فهذه مسألة زلّ فيها عالَم، وضلّ فيها طوائف من بني آدم، وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبّرة .

ثم أورد أدلة خلقها من اثني عشر وجهاً، وأجاب على الأسئلة الباقية وناقش أصحابها .

ويجدر بنا أن نورد ما ذكره في هذه المسألة عند تعرُّضه لقوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ التي قد تخفى على كثير من الناس..

قال في (ص ١٥١) : وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف، وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم.. بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو مَلَك عظيم..

وعندما أورد الحديث الذي فيه سؤال اليهود للرسول ﷺ عن الروح قال: ومعلوم أنهم عندما سألوه عن أمر لا يُعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح

الذي عند الله لا يعلمها الناس . وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة.. ثم أسهب في التعليل والمناقشة .

وقال في (ص ١٥٣) :

والروح في القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحي، كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ .

والثاني : القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين، كما قال : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ .

الثالث : جبريل، كقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ .

الرابع : الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله ، وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون...﴾ وأنها الروح المذكورة في قوله : ﴿ تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم...﴾ .

الخامس : المسيح ابن مريم، قال تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ .

المسألة الثامنة عشرة :

وهي تقدُّم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها .

قال : فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان، حكاهما شيخ الإسلام وغيره .

ثم أورد أدلة القولين، وناقش من قال إن الروح متقدمة على خلق البدن، وأورد الأدلة الكافية على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها .

المسألة التاسعة عشرة :

وهي : ما حقيقة النفس : هل هي جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه، أو جسم مُساكن له مودع فيه، أو جوهر مجرد ؟ وهل هي الروح أو غيرها ؟

قال :

الجواب أن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف، واضطربت أقوالهم فيها وكثر فيها خطؤهم، وهدى الله أتباع الرسول وأهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ..

وهذه المسألة من أطول المسائل.. وقد يكون الإيجاز فيها مخلًّا لكثرة الأقوال ومناقشتها.. فليرجع إليها هناك .

المسألة العشرون :

وهي : هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران ؟

بيّن المصنف أن مسماهما واحد وهو قول الجمهور .

قال : فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها، وسميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاسَتها وشرفها، وإما من تنفّس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً، ومنه النَّفَس بالتحريك .

ثم قال : فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات .

المسألة الحادية والعشرون :

وهي : هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس :

نفس مطمئنة ونفس لوّامة ونفس أمّارة .

وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخر، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ ويقول تعالى : ﴿ لا أُقسم بيوم القيامة ولا أُقسم بالنفس اللوامة ﴾ ويقول تعالى : ﴿ إن النفس لأمّارة بالسوء ﴾ .

والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة :
فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه.. الخ
ومما أورده في هذه المسألة :

فإن طمأنينة القلب سكونُه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتّى بشيء سوى الله تعالى وذكره ألبتة ؛ وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز، قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائناً من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله ..

ومما قاله أيضاً :

ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشود المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهودَ ذلك سُكْرُ الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكراً يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب .
ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر ..

ثم تحدّث عن النفس اللوامة والأمّارة :

واللوّامة مأخوذة إما من التلوّم وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلوّن . أو أنها مأخوذة من اللوم .

ومما قاله عن الأمّارة (ص ٢٢٩) :

من أعجب أمرها أنها تسخر العقل والقلب فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلّها فتخرجه في صورة مذمومة . وأكثر الخلق صبيانُ العقول أطفالُ الأحلام، لم يصلوا إلى حدّ العظام الأول عن العوائد والمألوفات فضلًا عن البلوغ الذي يميّز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره وشرّ الشرّين فيجتنبه ..

ثم أورد أمثلة مما تبديه النفس الأمارة وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر فيتباين الفعلان ويشتبهان في الظاهر . ولذلك أمثلة كثيرة، منها المداراة والمداهنة.. الخ .

وهذه المسألة من أكثر ما ينتفع به ولن تجد له مثلًا في كتب أخرى .

وهذه مقتطفات قليلة منها :

(ص٢٣٢) : وكان بعض الصحابة يقول : أعوذ بالله من خشوع النفاق. قيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن يُرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع ..

(ص ٢٣٤) : وأما المهانة فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السُّفَّل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه . فهذا كله ضعة لا تواضع . والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة .

(ص ٢٤٤) : وفي أثر معروف : إذا رأيت الله سبحانه وتعالى يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فإنما هو استدراج يستدرجك .

(ص ٢٥٠) : فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه وضيّق عليه مسالك الآخرة وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيّق الأرجاء مظلم المسلك . فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله . فإذا أشرق منه نور الإيمان واليقين بالوعد وامتلأ من محبة الله وإجلاله رقَّ وصارت فيه الرأفة والرحمة ، فتراه رحيماً رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها والطير في وكره فضلًا عن بني جنسه .

(ص ٢٥٣) : علامة الحب في الله والبغض في الله ....

إنه لا ينقلب بغضه لبغض الله حباً لإحسان (المرء) إليه وخدمته له وقضاء حوائجه، ولا ينقلب حبه لحبّ الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ويؤلمه إما خطأ وإما عمداً ..

(ص ٢٥٧) : وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو ومجاوزة وإما إلى تفريط وتقصير. وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله ﷺ وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به.. وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم . ولهذا حذّر السلف منهما أشدّ التحذير ..

وفي (ص ٢٦٠) ذكر أن ختام كتابه هو في هذا الفصل المهم.. قال :

« ولا تستطل هذا الفصل فلعله من أنفع فصول الكتاب، والحاجة إليه شديدة . فإن رزقك الله فيه بصيرة خرجتَ منه إلى فرقان أعظم منه، وهو الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين، والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه أهل التعطيل..» الخ .

ومما قاله في (ص ٢٦٥) :

إذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطاني... ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور علمت أنه من أوليائه، فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن : في صلاته ومحبته للسنة وأهلها ... ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة، فزنه بذلك لا تزنه بحال ولا كشف ولا خارق ولو مشى على الماء وطار في الهواء..

ونختم هذه المقتطفات بما ورد من شعر عن أولياء الرحمن (ص ٢٦٥) :

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض موردٌ للضنا
وكم قلت يا قوم أنتم على ... شفا جرف من سماع الغنا
فلما استهانوا بتنبيهنا ... تركنا غوياً وما قد جنا
وهل يستجيب لداعي الهدى ... غويٌّ أصار الغنى ديدنا
فعشنا على ملة المصطفى ... وماتوا على تاتِنا تَنْتَنا

* * *

الفهرس

صفحة